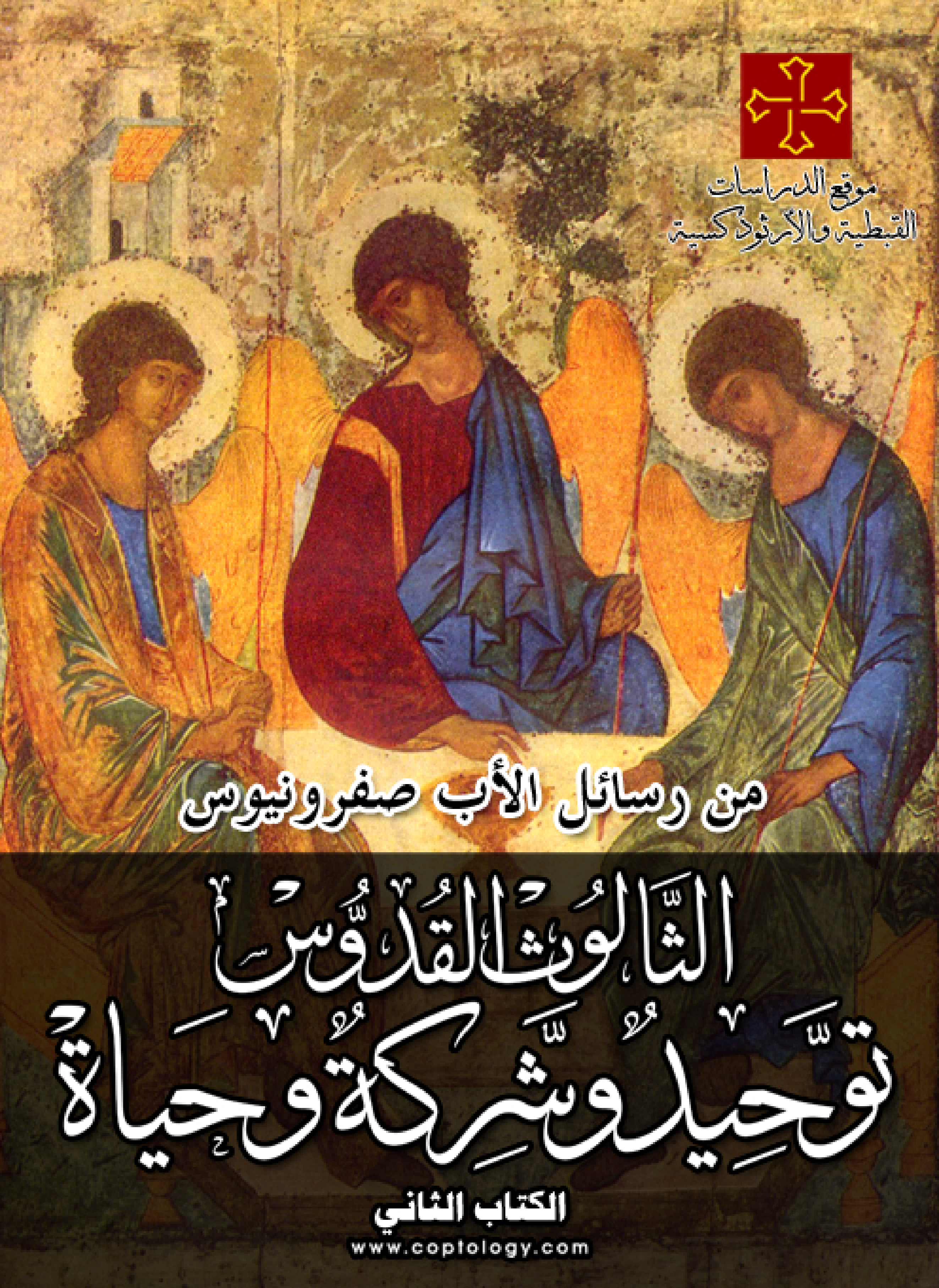

موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية
من رسائل الأب صفرونيوس
الثالوث القدوس
توحيد وشركة وحياة
الكتاب الثاني
www.coptology.com



من رسائل الأب صفرونيوس

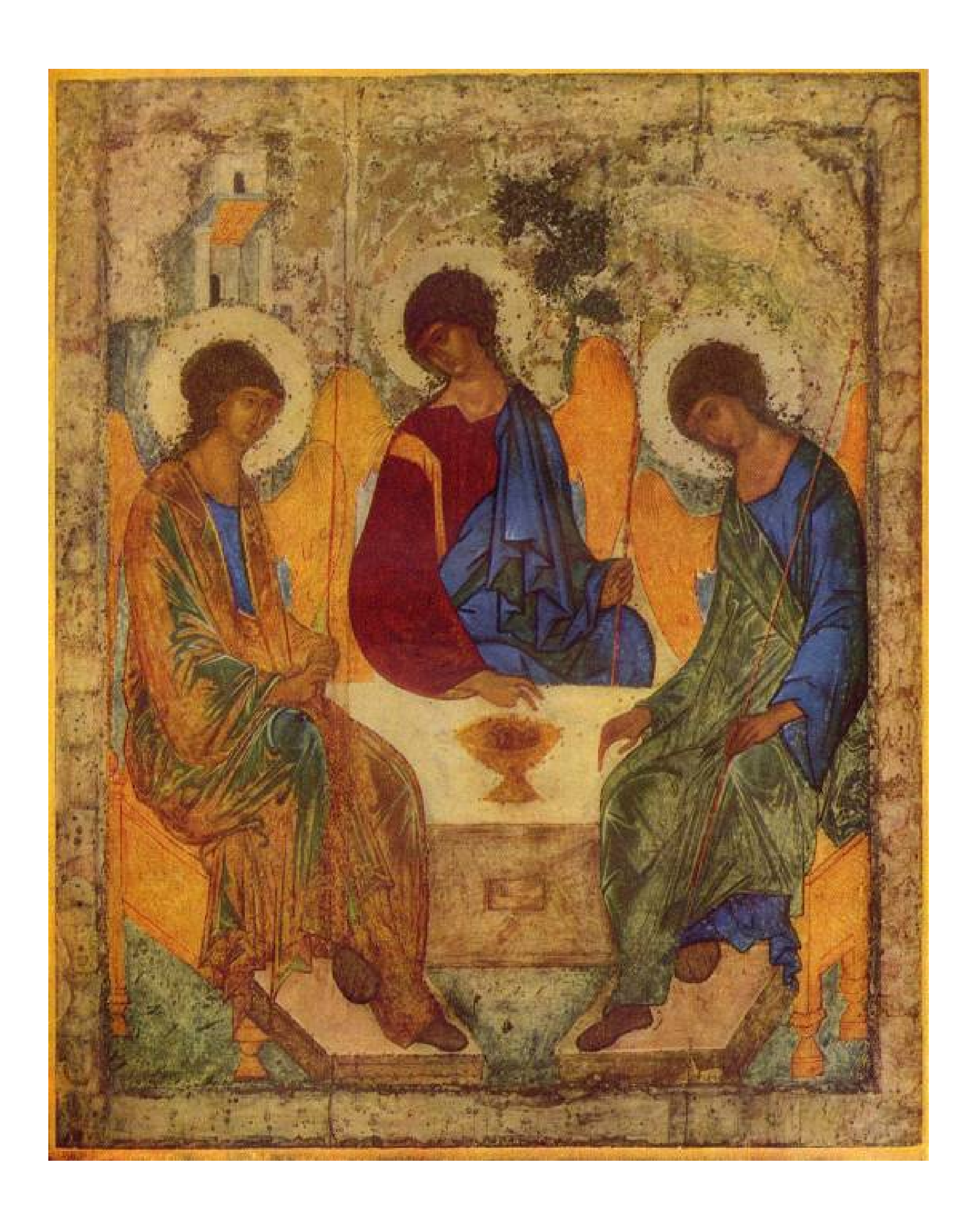


الكتاب الثاني

٢٠١٠

www.coptology.org

جدول المحتويات



أيقونة الثالوث الأقدس لأندريه روبليف

تعريف

أيقونة "ثالوث العهد القديم" التي صورها رسام الأيقونات الروسي العظيم أندريه روبليف في الربع الأول من القرن الخامس عشر لدير الثالوث والقديس سرجيوس في زاجوراسك بالقرب من موسكو. وتصور الأيقونة الملائكة الثلاث الذين زاروا إبراهيم وسارة. وقد عالج روبليف هذا الموضوع التقليدي على نحو أصيل، فلم يرسم إلاَّ الملائكة الثلاث وأضفى عليهم مسحة من الرقة والجمال في تكوين دائري يسوده الانسجام والصفاء الروحي. وفي القرن السادس عشر وُضِعَت الأيقونة بناء على أوامر القيصر الروسي بوريس جودونوف في غلاف (أوكلاد) من الفضة المذهبة والأحجار الكريمة، ولكنه نُزع في بداية القرن العشرين عند ترميم الأيقونة، وهي تُعرض منذ ١٩٢٩ في متحف ترتياكوف بموسكو مجردة من غلافها بحيث تُرى في كامل بهائها الأصلي. ومن الجدير بالذكر أن هذه الأيقونة خلبت لُب الكثيرين حتى قال عنها القس والعالم والفيلسوف الروسي بافل ألكساندروفتش فلورنسكي (١٨٨٢ – ١٩٤٣): "إن أشد البراهين الفلسفية على وجود الله إقناعاً برهانٌ لم يرد له ذكر في أي كتاب، ومن الممكن صياغته في أسلوب منطقي على النحو التالي: إن أيقونة الثالوث التي صنعها روبليف موجودة، إذن فالله موجود"[١].

هذا وقد أُخذ شرح الأيقونة الوارد بالمتن نقلاً — بتصرف – عن كتاب "لاهوت الرؤية" للاهوتي الروسي بول أفدوكيموف، نقله إلى العربية بتصرف الأرشمندريت أنطون هبّي، ونشرته منشورات القيامة — فاريا – لبنان ١٩٨٩ في سلسلة "من ثمار الروح" (٢) — ص ١١: ٢٧.

(١) أنظر في ذلك مجلة رسالة اليونسكو — العدد ٣٢٥، يونيو ١٩٨٨ ص ٣، ١٠.

شرح أيقونة الغلاف

بعد أن أتم تلاميذ روبليف العظيم سنة ١٥١٥ تزيين كاتدرائية سيدة النياح في موسكو بأيقونات رائعة، دخلها المتروبوليت والأساقفة والإكليروس والشعب، فصاح جميعهم بصوت واحد: "لقد انفتحت السموات حقاً وظهرت عظائم الله". إنه لشعور عميق نقدِّره خصوصاً أمام أيقونة الأيقونات، أيقونة الثالوث الأقدس التي رسمها الراهب الموهوب أندريه روبليف سنة ١٤٢٥، وقد رفعها "مجمع المائة فصلاً" بعد انقضاء نحو مائة وخمسين سنة على وفاته، إلى نموذج الأيقونوغرافيا، وكل ما يمثل الثالوث الأقدس. وفي سنة ١٩٠٤ رفعت لجنة الإصلاح كل الحلي المعدنية التي تزين الأيقونة. وبعد عملية شاقة دقيقة، ونزع الطبقات اللاحقة المتراكمة عليها، بدت الأيقونة بأبهى جمالها وروعتها، حتى استحوذ الذهول والإعجاب على أعضاء اللجنة أنفسهم. والحق يقال أن لا وجود لمثلها من حيث التعبير اللاهوتي المجمل وغنى الرمزية والجمال الفني.

تتميز الأيقونة بثلاثة أمور: تذكرنا أولاً بقصة الكتاب المقدس التي تتحدث عن زيارة الزوار الثلاثة لإبراهيم (تك ١٨: ١ – ١٥) يشرحها التعليق الليتورجي: "طوبى لك يا إبراهيم لأنك رأيتهم واستقبلت الإله الواحد المثلث الأقانيم". هذا وإن إلغاء صورة إبراهيم وسارة من الأيقونة يحملنا على التعمق أكثر في الموضوع والانتقال إلى الأمر الثاني الذي هو التدبير الإلهي. يؤلف الزوار الثلاثة "المجلس الأبدي" وتتبدل معاني المشهد: فخباء إبراهيم يصبح القصر – الهيكل، وسنديانة ممرا شجرة الحياة، والكون، رسماً إجمالياً في الطبيعة وعلامة طفيفة لوجوده، وتحل كأس القربان محل العجل المقدم للطعام.

أما الملائكة الثلاثة فتبدو أجسامهم طويلة رشيقة ممشوقة وأجنحتهم مرسومة على طريقة مشهد الطبيعة، فتوحي مباشرةً بعدم المادة وخلو الثقل، وتلغي الأبعادية المعكوسة البُعد والعمق، حيث يختفي كل شيء في القصي البعيد. وتقترب صور الأشخاص، ويظهر وجود الله هنا وفي كل مكان. وتشكل رشاقة المجموع — وهي سر من أسرار عبقرية روبليف — رؤية مجنحة.

يتحدث الأشخاص الثلاثة، وقد يكون حديثهم نص يوحنا: "لقد أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد". والحال أن كلمة الله فعل مستمر، ويأخذ صورة ذبيحة الكأس.

أمَّا الأمر الثالث المتعلق بداخلية الله فموحى به؛ لأنه فائق الإدراك وصعب المنال، والله حاضر مع ذلك؛ لأن التدبير الخلاصي صادر عن حياة الله الداخلية.

الله بذاته محبة في جوهره الثلاثي، وما محبته للعالم سوى انعكاس محبته الثالوثية، وما عطاء الذات نقصاً، بل تعبير عن فيض الحب، وهو ممثل بالكأس، والملائكة مجتمعون حول الغذاء الإلهي. وقد كشفت عملية إصلاح الأيقونة الأخيرة عن محتوى الكأس الحقيقي. لقد مثلت الطبقة اللاحقة عنقوداً وغطت الرسم الأول أي الحمل، الذي يربط هذه المائدة السماوية بكلمة الرؤيا: الحمل المضحَّى به قبل إنشاء العالم. وقد سبقت المحبة والذبيحة والتضحية فعل خلق العالم وهي مصدر.

الملائكة الثلاثة في سكون؛ إنه السلام الأسمى للكائن بذاته. على أن هذا السكون "مُسْكِرٌ". إنه انخطافٌ حقيقيٌ (الخروج بحد ذاته). إن التناقض كل التناقض في هذا الانخطاف. لقد قال غريغوريوس النيصي: "إن أكبر تناقض هو أن يكون السكون والحركة شيئاً واحداً".

تبدأ الحركة من رِجل الملاك الأيمن اليسرى، وتستمر في انحناء رأسه، وتمر إلى ملاك الوسط، وتجذب الكون بقوة عزيزة لا تقهر: الصخرة والشجرة، وتنتهي في وضع ملاك اليسار العمودي حيث تدخل في السكون دخولها في نقطة تلاقٍ.

ونلاحظ في هذه الحركة المستديرة التي تسيطر نهايتها على كل ما تبقى كما تسيطر الأبدية على الزمن. إن الخط العمودي للهيكل والعصى يُشير إلى خطوط القوة العمودية، إلى تطلع الأرضي نحو السماوي حيث تجد القوة الدافعة حدَّها.

إن رؤية الله هذه تشع حقيقة العقيدة الفائقة للعقول، فتنجلي الوحدة والمساواة من نظرة روبليف إلى الملائكة. فباستطاعتنا أن نأخذ ملاكاً مكان الآخر. وإن ما يفرق بينهم هو وضع الملاك الشخصي باتجاه الملاكين الآخرين. ومع ذلك، فلا وجود للإعادة والتكرار والإشكال والخلط. ويشير الذهب البرَّاق على الأيقونات دائماً إلى الإلوهة وفيضها، وتحيط أجنحة الملائكة باتساعها كل شيء وتغطيه، ويُظهر محيط Contours الأجنحة الداخلي المرسوم بالأزرق المُضاء الوحدة وصفة الطبيعة الواحدة السماوية؛ إنه إله واحد بثلاثة أقانيم متساوية تماماً. وهذا ما تدل عليه العُصيّ المتماثلة، علامة السلطة الملكية التي يتمتع بها كل ملاك.

وقد عبَّر روبليف بوضوح عن مساواة الملائكة الثلاثة الكاملة، حتى أنه لا توجد قاعدة لتحديد الأقنوم الإلهي الممثَّل بكل ملاك. فلا يشكل ملاك اليمين مشكلة: إنه الروح القدس. أمَّا الخلاف فقائم حول ملاك الوسط، فنتساءل أيُمثِّل الآب أم الابن؟ وفي حال تحديده تُعرف هوية ملاك اليسار.

هنالك شهادة مهمة للقديس اسطفانس البرمي de Perm المعاصر الأكبر لروبليف وصديق القديس سرجيوس الروسي. لقد حمل من بلاد الزيريان Zyrianes – وهي مقاطعة واسعة تمتد حتى جبال الأورال، تدعى "البرمية الكبرى La grande Permie " حيث كان يعمل – حَمَلَ أيقونةً تمثل الثالوث الأقدس على نحو أيقونة روبليف. وقد سُطِّرت حول كل ملاك كتابة باللغة الزيريانية تحمل اسمه. فدعي ملاك اليسار بي Py أي الابن، وملاك اليمين بيولتوس Puiltos أي الروح القدس، وملاك الوسط آي Ai أي الآب.

يتبع بول أفدوكيموف في تعليقه هذا التقليد ويقول: لقد دوَّنت السيدة ن. دومين N. DEMINE في دراستها الممتازة عن فن روبليف (موسكو ١٩٦٣ ص ٥٢ باللغة الروسية): "لقد اجتهد اسطفانس البرمي – سداً لحاجات رسالته – أن يشرح

بمنتهى الوضوح معنى الأيقونة. إن ترتيب الملائكة في أيقونته مماثل لترتيب روبليف. ومدلولهم مماثل أيضاً على الأرجح".

لكل أقنوم علامته الخاصة المميزة المشار إليها بالعصي التي توجه الأنظار إلى هذه الرموز. فتوجد خلف الآب شجرة الحياة، المنهل. يقول القديس اسحق: "إن شجرة الحياة حب الثالوث الأقدس التي سقط منها آدم". وتشير عصا المسيح إلى البيت – جسد المسيح السري. ويبدو الروح القدس على خلفية "الصخور المتدرجة": إنه الجبل، العليِّة، جبل ثابور، الارتفاع، الانخطاف، نسيم الفضاء، والقمم النبوية.

أمَّا الأشكال الهندسية للإنشاء التصويري، فهي: المستطيل والصليب والمثلث والدائرة، وهي التي تنظم بنية الصورة من الداخل، وعلى المرء أن يكتشفها.

لقد كانت الأرض بحسب مفهوم ذلك العصر مثمنة الأضلاع والزوايا. والمستطيل، خطوط الأرض المبهمة، نراه على جزء الطاولة الأسفل. أمَّا جزء الطاولة الأعلى، فهو مستطيل أيضاً ويشير إلى جهات العالم الأربع، وإلى الجهات الأصلية الأربع، ويرمز هذا الرقم (٤) عند آباء الكنيسة إلى الأناجيل الأربعة بكاملها بدون زيادة أو نقصان، وهو علامة شمولية الكلمة. ويمثل جزء "الطاولة – الهيكل" الأعلى، الكتاب المقدس مقدِّماً الكأس، ثمرة الكلمة. وإذا مددنا خط شجرة الحياة – القائمة خلف ملاك الوسط – نراها تنزل وتجتاز الطاولة وتغرس جذورها في مستطيل الأرض. لقد أعلنها الكلمة وغذَّاها من محتوى الكأس. ونجد فيها شرح سرها: لِمَ حملت الشجرة ثمر الحياة الأبدية؟ ولِمَ كانت شجرة الحياة؟ نسمع عشية الميلاد: "لقد ابتعد الملاك المستل السيف الملتهب عن شجرة الحياة"؛ لأن ثمرها عطية الإفخارستيا.

تتجه أيدي الملائكة نحو المستطيل، علامة الأرض ونقطة تطبيق الحب الإلهي. إن العالم – دون الله – كائن مختلف الطبيعة، ولكنه داخل في دائرة "شركة الآب" المقدسة، فيتبع الحركة المستديرة، ويجد نفسه في العلى، في السماوي الممثل بالصخرة، وتنتهي هذه الحركة المستديرة للعالم في القصر – الهيكل، وكأن هذا الهيكل هو امتداد الملاك – المسيح وتجسده، إنه جسده الكوني، والكنيسة عروس الحمل المتحد به "بدون انفصال ولا اختلاط".

يبقى الهيكل في سكون راحة السبت العظيم، نهاية الحركة الثالوثيـــة. لقـــد انتهت دورة الليتورجية الكونية، وجاءت رؤية أورشليم الجديدة الأخروية. ويرمز جزء الهيكل المذهَّب البارز مثل قوة حامية إلى حماية البتول الوالدية وكهنوت القديسين.

قُطِعَ عود الصليب – بحسب التقليد – من شجرة الحياة. وشكلها يشـــير إلى محور غير منظور، إنما وجوده واضح في الأيقونة. أمَّا الهالة، وهي الدائرة المنيرة المحيطة برأس الآب، مع الكأس والمستطيل، علامة الأرض كلها، فنجدها على الخط العمودي نفسه، القاسم الأيقونة إلى قسمين. ويتلاقى مع الخط الأفقي الواصل دائرة الملاكـــين الجانبيين النيرة، ويشكل الصليب. وهكذا الصليب مرسوم في دائرة الحياة الإلهية، وهو المحور الحي لحب الثالوث.

وتجتاز الحركة فرعي الصليب، وهما على منوال ذراعي المســـيح الممـــدودتين لتعانق العالم: "وأنا متى ارتفعت عن الأرض، اجتذبت إليَّ الجميع" (يـــو ١٢: ٣٢). الابن والروح القدس يدا الآب. وإذا جمعنا أطراف الطاولة إلى نقطة فوق رأس مـــلاك الوسط تماماً، نتحقق من أن الملائكة يحتلون بدقة مثلثاً متساوي الأضلاع، يدل علـــى وحدة الثالوث ومساواته، قمته الآب، الإلوهة المخصبة. وأخيراً يؤلف الخـــط التـــابع المحيط الخارجي للملائكة الثلاثة دائرة كاملة، علامة الأزلية الإلهية. ومركز هذه الدائرة في يد الآب الضابط الكل.

يختلف روبليف عن الإيطاليين. فهؤلاء يرسمون الصورة ضمن الـــدائرة. أمَّـــا روبليف فيؤلف الملائكة أنفسهم الدائرة. ويؤلف محيط الأشياء (الكراســـي ومراقيهـــا والجبل) المثمن الأضلاع والزوايا رمز اليوم الثامن. ويؤلف محيط ملاكي اليمين واليسار الداخلي الكأس التي هي بمثابة مفتاح لسر الأيقونة. إن توزيـــع الأجســـام Masses والنسب Proportions والمقاييس خاضع لنظام نِسَب Rapports موزون بمنتهى الدقة والكمال. ويبدي روبليف ضمن هذا الإطار حرية كبرى في أساليبه بغية التشديد على المعنى العقائدي عند الحاجة. مثال ذلك: تنحرف الكأس ويد الآب قليلاً نحو الأســـفل وإلى يمين الوسط، بينما يميل الرأس قليلاً إلى يسار المحور العمودي. إن هذه الانحرافات غير الملحوظة تقريباً مع طيَّات الثياب المنحدرة من الكتف اليسرى انحـــدار الشـــلال،

تجذب الأنظار إلى اليد التي تبارك الكأس مركز الصورة العقائدي، يدعمه ويظهره مجموع الخطوط العمودية والهيكل.

أمَّا أقدام الملائكة فتكاد تلمس مراقي الكراسي، مما يعطي تأثير خفة معدومة من كل ثقل، ويرفع المجموع نحو العلاء وقد أمسى رشيقاً، فنشعر وكأننا في "مراعي القلب" على حد تعبير القديس مكاريوس، وفي فسيح القلب الإلهي غير المحدود.

يبدو الأشخاص بثلاثة أرباع de trios quarts مما يقلل عرض الكتفين، ويمر الخط المرن تبعاً للهيئات المستطيلة ذات الأناقة السماوية. وكذلك الأوجه فإنها محولة قليلاً وحائزة على الشكل المستطيل نفسه. تعبِّر الخطوط المستقيمة عن عنصر القوة، وتتفق مع الخطوط المدورة، فنبهج النظر والقلب بإيقاعها الموسيقي الصِرف، وبنضارة الشباب، وتنشد نعمة القوة الكامنة فيها. ويعبِّر المحيط Contours عن الحركة أكثر مما يعبِّر عن الحجم، وتوحي سعة الملابس الشعور بخفة حِمل الجسد، فيما ينوه غطاء الرأس الواسع بلطافة تقاطيع الأوجه المتسمة بالصفاء القديم.

في وضع الآب شيءٌ من العظمة يبعث على السلام المهيب والسكون، والفعل الصِرف، المتمم، مبدأ الأبدية الثابت، وفي الوقت نفسه – وفي تعارض مدهش – يعبِّر عن المبدأ القوي في تصاعد حركة الذراع اليمنى وانحنائها القوي المتلائم مع القوة نفسها في انحناء العنق والرأس.

إن ما يفوق وصفه في سر الله، جمع السكون وعدم الحركة مع الحركة: مطلق الفلاسفة، وفعل اللاهوتيين الصرف، وإله الكتاب المقدس الحي، "أبانا الذي في السموات".

إن القدرة الإلهية، على نحو ما جاء في قانون إيماننا "أؤمن ... بآب ضابط الكل" هي قدرة محبة الآب المعبَّر عنها في نظرة ملاك الوسط. إنه المحبة، ولأجل هذا لا يستطيع أن يكشف عن نفسه إلاَّ في الشركة، ولا يستطيع أحد أن يتعرف عليه إلاَّ بصفته شركة. "لا يأتي أحد إلى الآب إلاَّ بي" (يو ١٤: ٦). ومن ناحية أخرى: "ما من أحد يقدر أن يأتي إليَّ إن لم يجتذبه الآب" (يو ٦: ٤٤). ليس هذا ضيقُ صدرٍ أو استبداداً إنجيلياً، إنما هو أعظم كشف عن طبيعة المحبة نفسها. لن يحصل المرء على أدنى

معرفة عن الله خارجاً عن الشركة بين الله والإنسان، وهذه الشركة ثالوثية دائماً، وتُظهر الشركة بين الآب والابن، وتجعلنا ندرك السبب الذي لأجله لا يكشف الآب عن نفسه مطلقاً مباشرةً، إنه المنهل، ولهذا هو الصمت بالضبط. يكشف عن نفسه أزلياً من خلال الابن والروح القدس اللذين يكشفان عنه. تعرض الأيقونة هذه الشركة، والكأس مركزها الحي.

تزداد خطوط الجهة اليمنى لملاك الوسط شيئاً فشيئاً كلما اقتربت من الملاك الأيسر. يشير الخط المقوّس المحدَّب دائماً — في رمزية الخطوط — إلى الإيضاح اللفظي، إلى الكلمة، إلى الانتشار، إلى الوحي، على عكس الخط المقوّس المقعَّر، فإنه يشير إلى الطاعة، إلى الانتباه،إلى نكران الذات، إلى القابلية. الآب متجه نحو الابن؛ إنه ينطق. الحركة السارية في كيانه هي الانخطاف. إنه يعبِّر كلياً عما في نفسه في الابن، "الآب فيَّ وكل ما هو للآب هو لي".

الابن يصغي، وخطوط ثيابه المقوّسة المقعّرة تعبِّر عن أعظم انتباه ونكران الذات. وهو يخلي ذاته أيضاً لكي يكون كلمة أبيه: "الكلام الذي أكلمكم به لا أقوله من عندي؛ الآب المقيم فيَّ هو الذي يعمل الأعمال" (يو ١٤: ١٠). يده اليمنى تنقل حركة الآب: البركة، إصبعاه البارزتان على بياض الطاولة — الكتاب المقدس، تعلنان طريق الخلاص — اتحاد الطبيعتين في المسيح ودخول البشري (الإنسان) في شركة الآب.

تدل يد الملاك اليمين النازلة على اتجاه البركة: العالم. وتبدو وكأنها تستر وتحمي، وتشبه جناحي الحمامة النقية المنبسطين فوق المستطيل الممثل العالم.

وتوحي عذوبة ملاك اليمين بشيء من الأمومة والحنان. إنه المعزِّي وهو الروح أيضاً، روح الحياة والمعطي الحياة. فيه بداية كل شيء. إنه عبارة الحب الإلهي الثالثة، روح المحبة. ويختلف وضعه بعض الشيء عن وضع الملاكين الآخرين. ويقوم في وسط الآب والابن بانحنائه واندفاع كل كيانه. إنه روح الشركة، وكل حركة تصدر عنه. بنَفَسه ينطلق الآب نحو الابن، والابن يتقبل الآب، والكلمة تُعطي صداها. وقد قال القديس يوحنا الدمشقي: "بالروح القدس نعرف المسيح ابن الله، وبالابن نتأمل الآب". لقد انطلق الآب نحو الابن يوم الظهور الإلهي في حركة حمامة.

بحزنٍ يفوق الوصف، وهو حزنٌ بحجم الحب الإلهي، يحني الآب رأسه نحو الابن، ويبدو كأنه يتحدث عن الحَمَل المضحَّى، وتبلغ تضحيته ذروتها في الكأس التي يباركها. ويعبِّر وضع الابن العمودي عن كل انتباهه، وكأن وجهه مظلل بالصليب، إنه غارقٌ في التفكير، يعبِّر عن موافقته بإشارة البركة نفسها. إذا كانت نظرة الآب في عمقها غير المحدود تتأمل في طريق الخلاص الوحيد، فإن رفع نظر الابن، الذي يكاد يكون ملحوظاً، يعبِّر عن قبوله ورضاه. أمَّا الروح القدس فإنه ينحني نحو الآب؛ إنه غارقٌ في التأمل في السر، فتشير ذراعه الممدودة نحو العالم إلى الحركة النازلة، إلى العنصرة، إلى "القوة الكاشفة" وكأنه حالٌ الآن على الابن في رسالته الأرضية. وضعه وضع الخضوع، إنه تحقيق الإنجيل.

للألوان في الأيقونوغرافيا لغتها الخاصة. لقد بلغت عند روبليف غنى لا يُعَادَل: هي اتفاق موسيقي تام يتجلى فيه سلم الألوان بكامله في أدق تنوع فينعكس على تفاصيل الصورة كلها. ومع ذلك لا تأثير لتعدد الألوان، إذ لا شيء يعكّر عمق الاختلاء الإلهي. فلا وجود للظل، وكل جزء غير مضاء إلاَّ بنوره الخاص المتدفق من جذور سرية. أمَّا كثافة ألوان الصورة الوسطى فتزداد بهاءً بتعارضها مع بياض الطاولة التي تزهو بتألق الملائكة المحيطين بها تألقاً لطيفاً ناعماً.

يؤلف الأرجوان الشديد الاحمرار (الحب الإلهي)، والأزرق الكثيف (الحقيقة السماوية)، وذهب الأجنحة البراقة الزاهر (الفيض الإلهي) انسجاماً تاماً Accord parfait يستمر ويتلاقى في لون ملطَّف مثل رؤية منوعة واستنارة تدريجية: الوردي اللطيف والليليكي إلى الشمال، الأزرق الملطَّف والأخضر المفضض إلى اليمين، ذهب الكراسي، القاعدة الإلهية، يحكي عن فيض الحياة الثالوثية؛ ويعبِّر الأزرق المسمى "أزرق روبليف" عن لون سماء الثالوث والفردوس. وعندما يميل الأزرق أكثر فأكثر إلى لونه الفاتح، يصبح كنور الأيقونة نفسها السماوي.

تقبض يد الآب على البداية والنهاية، وهي ممدودة فوق الكأس. ويشمل الزمان في الأبدية الحملُ المضحى قبل إنشاء العالم، وحمل هيكل أورشليم الجديدة، وعشاءُ المسيح السري المقدس، ووعده بأن يشرب عصير الكرمة في ملكوت الآب،

هذه جميعاً تُدخل الزمان في الأبدية. وتشع الكأس بياض الكلمة الساطع، فتعكس الكلمة ألوان الحقيقة كلها، وهذا إشعاع القلب، والعطاء المتبادل عند الأقانيم الثلاثة الإلهية.

ينبعث من الأيقونة نداء شديد: "كونوا واحداً كما أنا والآب واحد". الإنسان مخلوق على صورة الله المثلث الأقانيم. وجميع البشر مدعوون ليلتفوا حول الكأس الواحدة نفسها، ويرتفعوا إلى مستوى القلب الإلهي، ويشتركوا في الوليمة المسيانية، ويصيروا هيكلاً – حملاً واحداً، "الحياة الأبدية (الروح) هي أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يو ١٧: ٣).

وتنتهي الرؤية عند هذه الإشارة الأخروية: هي مقدمة ملكوت السماوات المغمورة كلياً بالنور الذي ليس من هذا العالم، مغمورة بفرح طاهر نقي مجرد، بفرح إلهي. وهذا لسبب بسيط، وهو أن الثالوث الأقدس موجود، وهو يحبنا، وأن كل ما لدينا من نعمة منه. وعند هذه الرؤية يستحوذ الذهول على النفس فتصمت. لا ينطق الصوفيون مطلقاً من قمة وعلو. الصمت وحده يكشف عما يخالج النفس.

الثالوث القدوس، وتدبـــير الخــــــلاص[١]

١– التدبير هو رسمٌ إلهيٌ مُعلنٌ في الزمان وأساسه في الأزل. مُعطى لنا حسب النعمة، ولكن مصدره هو الثالوث. يوحِّد حسب الإعلان، وينزع الانقسام؛ لأنه شركة في الواحد في الثالوث. ينظِّم حياة ومصير الخليقة الجديدة، ويعطي لها في الزمان الحاضر "العربون"[٢] إلى أن يأتي الدهر الجديد الذي لا تغرب فيه شمس الحياة بالموت، بل تُشرق دائماً بنور أزلي يَهَب الاستنارة من الآب بالابن في الروح القدس.

٢– نرى التدبير في رسمين (صورتين): الصورة الأولى، الخليقة التي ساد عليها الموت. والصورة الثانية، الخليقة الناهضة من أوجاع الموت والفساد إلى حياة "حرية مجد أولاد الله" (رو ٨: ٢١). وقد قدَّم الرسول لنا هاتين الصورتين في عبارة موجزة تحتاج إلى شرحٍ دقيق؛ لأنه يقول لنا: "لأننا نحن الذين في سكن إقامتنا ⲁⲛⲟⲛ ϧⲁ ⲛⲏⲉⲧϣⲟⲡ ϧⲉⲛ ⲛⲁⲓ ⲙⲁⲛϣⲱⲡⲓ نئن مُثقَلين إذ لسنا نريد أن نخلعها، بل أن نلبس فوقها لكي يُبتَلع المائت من الحياة" (٢كور ٥: ٤).

فالخليقة الأولى أمامنا لا تحتاج إلى شرحٍ أو تقديم، ولكنها مُثقَلة تحت رباطات الفساد وسلطان الموت الذي فيه وبه تنحل كل العناصر المنظورة، ونرى انحلالها بشكل ظاهر لا يحتاج إلى شرح المعلمين؛ لأن الموت الجسداني يسعى إلينا بصور مختلفة ومتنوعة، لا نملك نحن أن نلاشيها، بل بواسطة الأدوية والسلوك الحكيم الذي يجعل قوتها تحت سيطرة مؤقتة إلى أن يندفع الفساد ويُبطل حكمة الأطباء. كما يظهر لنا انحلال الخليقة الأولى بكل وضوح؛ لأن الذين سبقونا رقدوا في القبور وكل ما تركوه لنا لا يدوم، بل يفسد حسب فساد كل ما هو منظور.

---

(١) عنوان أصلي، وربما من وضع الناسخ.

(٢) "الذي ختمنا أيضاً وأعطى عربون الروح في قلوبنا" (٢كور ١: ٢٢). "ولكن الذي صنعنا لهذا عينه هو الله الذي أعطانا أيضاً عربون الروح" (٢كور ٥: ٥)."

٣- لكن يا إخوة، الانحلال الداخلي (الروحي) يقول عنه الرسول: "كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا" (أف ٢: ١)؛ لأن الموت الروحي صعب على غير الذين استناروا بنور الحياة أن يدركونه؛ لأن الميِّت لا يفهم ولا يحس ولا يقرر، بل هو تحت سلطان الأغلال.

أمَّا نحن الذين أدركتنا نعمة القيامة في المسيح في هذا الزمان، فإننا نئن مثقَلين كما قال الرسول؛ لأننا نرى مكان أو مسكن إقامتنا، وهو حقاً يهتز أمام الأمراض وضيقات الحياة الجسدانية، ولكن انحلال الكيان الإنساني هو انحلال داخلي في (الإنسان الباطن) حسب تعبير الرسول[1]، وهو انحلالٌ لا نراه بصورة كاملة؛ لأن العقل غير المستنير بالروح القدس هو عقل آدم الأول، وليس عقل إنسان القيامة. الإنسان الجديد المخلوق حسب الله، لا يُدرِك سبب الموت الروحي لأنه ميِّت.

أمَّا نحن الذين أدركتنا نعمة الحياة الأبدية في يسوع المسيح، فإننا نرى بكل يقين أن الموت الروحي يأتي أولاً في صورة مألوفة لنا وهي استقلال الإنسان، ورفض الشركة، وترك الصورة الإلهية والتمسك بالصورة الفاسدة، صورة آدم الأول، الصورة التي ترى أن الاعتداد بالكلام أو بوسائل أخرى هو قوة، وإن الشتائم والتجاديف حكمة ودفاع عن النفس، وإن الكبرياء والسرقة والزنى والقتل هي وسائل للحياة، ولا ترى فيها بالمرة أنها "تعدٍّ" كما قال الإنجيلي يوحنا الرسول إن "الخطية هي التعدِّي" (١ يو ٣: ٤)، أي الخروج على الحدود التي رُسِمَت للإنسان، وهي حدود الحياة بدون الله كخالق ومدبِّر للكل، وجلوس الإنسان على عرش الله حاكماً وقاضياً في أمور الكون حسب مقاييس وشريعة الخير والشر التي ارتضاها الإنسان لنفسه و لم يحددها من خلال الشركة.

لذلك السبب، أيها الإخوة، أرجوكم - في رب الحياة يسوع المسيح - أن تلاحظوا أن كل الخطايا والتعديات هي صورة الموت الروحي، وهي صورة لا يحاربها العالم، بل يعطي لها الشرعية ويدعِّمها بالقوة اللازمة؛ لأنها تخدم تطلعات الإنسان وشهواته الفاسدة.

---

(١) "لكي يعطيكم بحسب غنى مجده أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن" (أف ٣: ١٦).

وعندما نسأل الموحِّدين عن الخلاص من الموت الروحي، لا نسمع إجابة؛ لأن توحيد هؤلاء بلا تدبير، وهو توحيد يقبل حالة الإنسان الراهنة ويسقط في بئر الخطايا مُعلناً رحمة الله وغفرانه بلا تجديد أو تجلٍّ للحياة الإنسانية، وبذلك حَكَم على نفسه على أنه ليس من الله، بل من المعرفة الطبيعية النابعة من الموت، التي ترى أن كل ما في الوجود خاضع للحياة الإنسانية، وسلطان شريعة الخير والشر كما حددها الإنسان، وليس كما حددها الإنسان مع الله من خلال الشركة؛ لأن المزمور الثامن يعلن في صراحةٍ تامة لا لبس فيها، أن الإنسان هو ملكٌ متوَّجٌ من الله على كل الخليقة لكي يسود على الكل من خلال الشركة لا من خلال الاستقلال أو الابتعاد عن الله(١).

لكن الموحِّدين يقعون في جهلٍ، هو جهل حقيقة الفساد الداخلي الذي يجعل الإنسان الخاضع للموت يموت كإلهٍ مزيَّفٍ قال عنه المزمور: "لا يعلمون ولا يفهمون وفي الظلمة يتمشُّون — مع قوات الظلمة — حتى أن كل أسس الأرض تتزعزع"؛ لأنهم يمدون أيديهم إلى ما هو أبعد من حدود خلقهم (راجع مز ٨٢: ٥)، ولذلك يقول المزمور: "أنا قلت أنكم آلهة (وهي الصورة الإلهية) وبنو العلي كلكم (دون تمييز بين جنس أو لغة أو شعب) لكن مثل الناس تموتون (لأن الموت يدركنا) وكأحد الرؤساء تسقطون (أي الشيطان)" (راجع مز ٨٢: ٦)، ولذلك يختم المزمور: "قم يا الله أحكم على الأرض (أي البشر الذين صاروا ترابيين) لأنك أنت يا الله ملك كل الخليقة" (راجع مز ٨٢: ٧).

٤– وقد ذكرنا من قبل إنَّ الله هو نور الحياة؛ لأن الخالق هو واهب كل الأشياء وجودها وحياتها. ولكن إنْ كان الإنسان هو نور الحياة، صارت الحياة مظلمةً.

أمَّا الآن وقد صارت عتمة وظلال في كورة مصر – التي قبلت بشارة الإنجيل من معلمنا مرقس البشير – فقد ساد الظلام في دوائر وبيوت الغنوصيين؛ لأنهم يدَّعون أن الخلاص هو بمعرفة الخير والشر، وعبادة الله على هذا الأساس.

---

(١) "أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ حَيْثُ جَعَلْتَ جَلاَلَكَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ!. مِنْ أَفْوَاهِ الأَطْفَالِ وَالرُّضَّعِ أَسَّسْتَ حَمْداً بِسَبَبِ أَضْدَادِكَ لِتَسْكِيتِ عَدُوٍّ وَمُنْتَقِمٍ. إِذَا أَرَى سَمَاوَاتِكَ عَمَلَ أَصَابِعِكَ الْقَمَرَ وَالنُّجُومَ الَّتِي كَوَّنْتَهَا. فَمَنْ هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ وَابْنُ آدَمَ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ!. وَتَنْقُصَهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ وَبِمَجْدٍ وَبَهَاءٍ تُكَلِّلُهُ. تُسَلِّطُهُ عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ. جَعَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ. الْغَنَمَ وَالْبَقَرَ جَمِيعاً وَبَهَائِمَ الْبَرِّ أَيْضاً. وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَسَمَكَ الْبَحْرِ السَّالِكَ فِي سُبُلِ الْمِيَاهِ. أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ".

أمَّا نحن، فإن الإنجيل – بشارة الحياة – يؤكد لنا أن معرفة الخير والشر مرَّت بمرحلة الطفولة التي ذكرها الرسول: "لَّما كنت طفلاً مثل طفلٍ كنت أفهم" (راجع ١كور ١٣: ١١)، وهي تحديد الخير والشر على أساس الشريعة الموسوية، ولكن لما قال الرسول: "ولكن لما صرت رجلاً أبطلت ما للطفل"، فقد جاء الكمال بالمسيح، وهو لذلك يقول إنه يسعى من أجل الذي جاء الرب يسوع لأجله، أي الكمال، وهو الذي جعل معرفة الخير والشر من خلال معرفتنا بالثالوث القدوس؛ **لأننا لا نقبل الحلال والحرام كأساس للسلوك، بل ما هو من المحبة والشركة كأساس للسلوك**؛ لأنه لهذا وضع الرب يسوع الكنيسةَ في العالم، معطياً لها أن تكون أساس الخليقة الجديدة والبناء الروحي الكامل الذي فيه يجمع الكل معاً في وحدةٍ هي وحدة جسد المسيح، حسب كلمات التقوى: "وأنتم جسد المسيح وأعضاؤه كأفراد" (راجع ١كور ١٢: ١٢).

لندرك الذي لأجله أدركنا المسيح، وهو الوحدة، وهي لا يمكن أن تبنى على أساس التمييز بين الحلال والحرام، بل على أساس الحياة المشتركة؛ لأن تجنب الشر لا يخلق الوحدة، بل التآلف والاجتماع، هو بالثالوث القدوس الذي يجعلنا واحداً.

٥– هكذا نرى ثاؤريا التدبير:

– وحدة أساسها اتحاد اللاهوت بالناسوت في الرب الواحد.

– وشركة في الابن بسبب التجسد، والمسحة في الأردن، والصلب والقيامة، والجلوس عن يمين الآب، وحلول الروح القدس.

عندما نرى ثاؤريا التدبير، فإننا ندرك منها أساسات الشركة؛ لأن الرب يسوع المسيح "رئيس الحياة"، أي مصدرها الوحيد، الذي أظهر لنا الحياة الإنسانيةَ بتجسده، وأعلن مجد الحياة الإلهية في أُقنومه، وأعلن شركته في الآب والروح القدس بالسلوك أي بالعمل، وبالتعليم، وبالمعجزات.

كيف أعلن الرب
تدبير الخلاص والشركة؟

٦- الخلاص هو شركتنا في الثالوث، وهي شركة لا وجود لها إلاَّ بتجسد الابن، الذي في تجسُّده جمعَ الصليب والقيامةَ معاً؛ لأنه - كشخصٍ - أعلن لنا سلطانه على الموت بالصليب الذي هو علامة الانتصار، وقوته التي تجعل القيامة تسري في كياننا الميِّت، وتعيدنا إلى حياةٍ أبديةٍ بصورةٍ أكمل وأجمل وأعظم، وهي صورة المسيح الحي القائم من الأموات بمجد الآب وبقوة الروح القدس.

أعلن الربُ أساس الثاؤريا، ثاؤريا التدبير على ثلاث مراحل:

أولاً: بالميلاد من الروح القدس، ومن العذراء القديسة مريم، أي ثبات الاتحاد بين اللاهوت والناسوت بواسطة الروح القدس الذي قدَّم له الناسوت من والدة الإله.

ثانياً: بمسحة الروح القدس وبالصلب وبالقيامة حيث اشترك روح الحياة في غلبة الموت بالصليب، وفي هبة الحياة العديمة الفساد؛ لأن عطية الجسد والنفس الإنسانية بواسطة الروح القدس في التجسُّد، كمُلت بغلبة الموت والفساد.

ثالثاً: بالصعود ودخول السماء عينها، ولأن الروح مسح الابن المتجسِّد، أي اشترك معه في كل تدبير الخلاص معلناً لنا بعد ذلك شهادته عن تجسد الرب وموته المحيي وقيامته المقدسة.

الإعلانات الإلهية في تدبير التجسُّد

٧- عندما بشَّر الملاك والدة الإله بالحبَل الإلهي، كان أول الإعلانات هو حلول الروح القدس عليها لكي تلد ابن الله بعد أن تحبل به. هكذا أُعلنت لنا أول أعمال "الرب المحيي" روح الآب. وهكذا أيضاً أُعلن لنا معنى "الباراكليت" المعزِّي؛ لأن عزاء الإنسانية هو أن تولد من جديد بميلاد لا يقوى عليه الموت. ميلادٌ لحياة

جديدة، أُعلن لنا بما هو منظور، أي بالحَبَل وتجسُّد ابن الله وولادته حسب القوانين الخاصة بالخليقة الأولى، أي تلك التي تحدَّث عنها سفر الخليقة الأول (التكوين)، والآن تُعلن في سفر الخليقة الجديدة (الرب يسوع) وأمه القديسة مريم التي حبلت بالروح القدس أي بواسطته. وبمجيء الخليقة إلى عصر جديد أو عهد جديد هو بميلاد الرب ميلاداً إنسانياً من بتولٍ لا تعرف رجلاً؛ لأن الإنسانية الأولى كما قال الرسول هي "الترابيون"[١] (١كور ١٥: ٤٨). أمّا الإنسانية الجديدة، فهي "الروحانيون" أي المولودون من الله (يو ١: ١٣ - ١٤) ميلاداً جديداً من الروح القدس[٢].

٨– ماذا أُعلن لنا؟

أولاً: تجسُّد ابن الله.

ثانياً: عمل الروح القدس.

ثالثاً: ميلاد الخليقة الجديدة التي وُلِدَ رأسها في بيت لحم اليهودية.

ونحن لا نفصل بين تجسُّد ابن الله وعمل الروح القدس، وميلاد الخليقة الجديدة؛ لأننا ندرك أن ما جاء الرب يسوع لكي يبنيه – أي "البناء الجديد من الله"[٣] (٢كور ٥: ١) — لا يقع خارج عمله، ولا هو بعيدٌ عن أُقنومه، بل يتم في داخل الإله المتجسِّد؛ لأنه يُكوِّن فيه الإنسانية الجديدة المخلوقة حسب الله، الإنسانية التي لا تموت.

لماذا تُخلق فيه (أي بتحوُّل الإنسانية التي أخذها من والدة الإله إلى إنسانية عديمة الموت، ولها شركة دائمة أبدية في الثالوث)؟ لأنه لا ضمان لأي إنسانية أن تحيا حياة المجد والقوة والأبدية إلاَّ إذا كانت فيه باتحادٍ لا يقبل الانفصال. هذا هو دواء السقوط الأول، أي سقوط آدم، وليس آدم فقط، بل ولكل سقوطٍ حتى للذين نالوا ختم البنوة وارتدُّوا عن الإيمان؛ فإنهم يعودون ليس فقط بسبب رحمة الله ومحبته للخطاة، بل لأن ميراثهم الأبدي "محفوظ" في المسيح يسوع ربنا.

---

(١) "كما هو الترابي هكذا الترابيون أيضاً.وكما هو السماوي هكذا السماويون أيضاً".

(٢) "الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله".

(٣) "لأننا نعلم انه إن نقض بيت خيمتنا الأرضي فلنا في السموات بناء من الله بيت غير مصنوع بيد أبدي".

نعم – أيها الأحباء – لقد وُلدنا **معه وفيه وبه**. **معه** أي في الزمان حسب النبوات. **وفيه** لأن إنسانيتنا فيه إلى الأبد. **وبه** لأنه هو الذي اختار أن يعطينا هذه الهبة والعطية الفائقة التي لا يعلو عليها أي عطية. ولأننا **معه**، فهو يخدم لنا المائدة السماوية. **وفيه** عندما يدعونا إلى الخدمة. **وبه** عندما نأخذه طعاماً سماوياً للقيامة وحياة المجد.

٩– نحن **فيه** بسبب تواضعه ومحبته، ونحن **فيه** لأن كل شيءٍ "**به**"، وعندما نقول "**به**" فهو المصدر أو الينبوع، وهو الوسيلة وهو الهدف، ولذلك السبب نقول: إن الرب يسوع المسيح هو حياتنا وقيامتنا كلنا.

نحن لا نسعى إلى هدفٍ يختلف عن الوسيلة، ولا إلى وسيلةٍ هي غير المصدر، بل الكل معاً هو شخص الرب يسوع المسيح الذي "منه وبه وفيه كل الأشياء" كما قال الرسول (رو ١١: ٣٦).

١٠– الإعلانات الإلهية حسب تجسُّد ابن الله هو جوهر الصلاة الشخصية، وصلوات الخِدم الكنسية (الليتورجيات، وقد وردت بصيغة الجمع في النص القبطي).

حسب تجسُّد ابن الله أُعلن لنا التبني، وأُعلن لنا أصل الحياة كأبناء الله، أي يسوع المسيح. **نحن نصلِّي فيه، ولذلك أضاف الآباء حسني العبادة إلى الصلاة الربانية "بالمسيح يسوع ربنا"**، وهي ما يرتَّل علناً في صلواتنا مؤكدين بذلك، ليس فقط امتلاء الكنيسة من الله، بل أيضاً امتلاء حياتنا من حياته. هو حياتنا، ولذلك نحن نصلِّي فيه كرأس الخليقة الجديدة. هو رجاء قبول صلواتنا، وهو صلواتنا نفسها.

١١– نحن نصلِّي صلاة يسوع "يا ربي يسوع المسيح ابن الله الحي ارحمني أنا الخاطئ"، وعبارات أخرى يختارها كل واحدٍ منا حسب احتياجه. **لكننا نصلِّي يسوع نفسه**، نصلِّي تجسُّده من والدة الإله، ونصلِّي ميلاده، ومعموديته، وتجاربه، وتعليمه، وموته المحيي، وقيامته المجيدة، وصعوده إلى السموات، ونصلِّي مجيئه الثاني. نحن نصلِّي يسوع في معجزاته، وعند تلاوة الأسفار المقدسة. **هو الإفخولوجيون**(١) **الحي الذي نحمله في داخلنا، والذي به وفيه ومعه نكتبه صلاةً أبديةً على قلوبنا بلا حروفٍ،**

---

(١) الأفخولوجيون هو الكتاب الذي يحتوي على الصلوات الليتورجية، وهو ما يعرف عندنا بالخولاجي المقدس، والكاتب يقصد أن يكون يسوع نفسه هو كتاب صلواتنا.

وبلا كلماتٍ، بل بإعلانات الروح القدس الذي غرس حياته فينا؛ لأن الروح منحه الجسد والنفس الإنسانية لكي يمنحنا الإعلان الجديد بأننا سننال حياةً جديدةً سماويةً، حياةً إنسانيةً مشرقةً ومتألقةً بالروح القدس، أساسها في تجسُّد الابن، وقوهما في عمل الروح الذي غرسها ويسقيها؛ لأننا "اعتمدنا إلى جسدٍ واحدٍ، وشربنا من الروح القدس الواحد" (راجع ١كور ١٢: ١٢ - ١٣)؛ لأننا حسب إعلان ابن الله ننال حياةً فيه وبه ومعه: **فيه** أي بإنسانيتنا، و**به** لأنه الوسيط، و**معه** لأنه أدخلنا إلى شركته في الآب وفي الروح كوسيط ورأس جديد للإنسانية.

هذا هو أساس صلواتنا، أي يسوع نفسه. ولذلك كان الآباء الذين عاشوا بيننا والذين لا زالوا في رتبة المُعلِّمين يقولون لنا إن أردت أن تفهم الأسفار المقدسة كلها "صَلِّ يسوع"، أي ليكن هو صلاتك، أي ليكن هو الإفخولوجيون الحي الذي تحمله معك وفيك لكي تفتح به ختوم الأسفار ولا تسقط من الإيمان.

صَلِّ يسوع على هذا النحو:

- أعطني شركة في بنوتك يا ابن الله؛ لأنني بالطبيعة عبد، وحسب غنى نعمتك ابن.

- لقد وُلدتَ من أجلي أنا الخاطئ من والدة الإله.

- أعطني دائماً أن أكون معك وفيك وبك:

+ معك حسب كلمتك المحيية،

+ وفيك لأنني ملتصق بك حسب سر ميلادي الجديد،

+ وبك لأنك يا رب قوتي وحياتي.

- ليكن روحك القدوس في قلبي؛ لكي أُولد في كل كلمة وفعل وحركة؛ لكي أحيا بالروح وأتنفس "نسمة الحياة" التي أعطيتها لتلاميذك القديسين بعد قيامتك (يو ٢٠: ٢٢).

وعلى هذا النحو صَلِّ الحَبَل، والبشارة، والتجسُّد، والرعاة، والمجوس، وكل حياة الرب. صَلِّ تجاربه يوم الأربعاء، وصَلِّ موته المحيي يوم الجمعة، وصَلِّ قيامته يومي السبت والأحد، وصَلِّ تعليمه في باقي الأيام، وصَلِّ معجزاته في يوم الخميس لا سيما سر المائدة السماوية السرية.

ومن لديه حس روحي متقدِّم يرى كل ذلك في الثيؤطوكيات التي رتَّبتها الكنيسة الجامعة حيث أساس كل صلاة هو تجسُّد ابن الله الحي.

ما أُعلن عن الثالوث في تجسُّد ابن الله

١٢- قلنا سابقاً إننا نؤمن أن الآب أرسل ابنه، وهذا يعني أنه جاء بعطية التبني لنصير أبناء الله. فالتجسُّد هو أساس هذه العطية، ولذلك - حتى بعد القيامة - يقول المخلِّص والفادي: "أصعد إلى أبي وأبيكم" (يو ٢٠: ١٧)؛ لأن صعود المخلِّص أكَّد بنوتنا للآب؛ لأنه هو رأس البشرية الجديدة التي يحملها في أُقنومه الإلهي، والتي بعد أن أباد الموت وقوات الجحيم، نقل الإنسان إلى مجده الإلهي.

نحن لا نأخذ عطيةً من عطايا الله بواسطة عمل واحد من أعمال الابن، بل بشركتنا في الابن في تجسُّده، وكل حياته التي ملأها من خيرات وكنوز اللاهوت، ندخل إلى "النعمة التي نحن فيها مقيمون" (رو ٥: ٢). لأن التجسُّد يجمع كل أعمال الرب، ولأن أعمال الرب تمت في تجسُّده، أي في جسده، الموت والقيامة وقبل ذلك مسحة الروح القدس.

ومع أننا نحتفل بأعياد الرب حسب ترتيب كل عيد (في السنة الطقسية) إلاَّ أننا يجب أن نتذكر أننا في كل عيد نتناول جسد الرب ودمه؛ لأن المسيح هو حياتنا، وهو الذي أعطانا شركةً فيه، ولذلك عندما نحتفل بمعمودية الرب ونقدِّس المياه، لا نقف عند معمودية الرب ونهمل موته المحيي؛ لأن الليتورجية لا تسمح لنا بهذا التقصير، بل تدعونا إلى أن نأخذ من ملئه حسب احتياجنا الروحي.

وحسب ترتيب الكنيسة نحتفل بموت الرب وقيامته في كل صلواتنا، أمَّا في يوم الجمعة، يوم تذكار صلب المخلِّص، فإننا نحتفل بموته المحيي عنَّا أولاً، وراحته في

القبر في سبت الراحة العظيم، وقيامته فجر الأحد ظافراً بالموت هادماً قوة الجحيم معلناً خلاصنا؛ لأننا في خميس الأسرار (خميس العهد) نقيم القداس ونقدِّم الذبيحة تقديماً كاملاً؛ لأنها من إرادة الرب حسب قول الرسول: "لأننا بهذه المشيئة مقدَّسون بتقديم جسد يسوع المسيح" (عب ١٠: ١٠).

١٣- لقد أُعلن الثالوث - كمخلِّصٍ لنا - في تجسُّد الابن؛ لأن الروح القدس أعدَّ الجسد بعد أن قدَّس العذراء والدة الإله. والآب أعلن محبته لنا بمجيء الابن. لقد جاء بالبنوة لكي ندخل شركة بنوته لكي نكون مثله، ولكي يكون لنا شركة في الآب الذي هو مصدر كل شيء. ونحن مثل الابن نتصل بالآب بواسطة الابن، فهو الصلة، وهو الرأس أي بدايتنا، كما أن الآب هو رأس الابن أي بدايته، أي أصله، فهو بلا بدء حسب الزمان، وله بدء ⲁⲣⲭⲏ في الآب الذي بلا بدء؛ لأن البدء ليس زمانياً؛ لأن اللاهوت بلا زمان، بل هو خالق الزمان. بدءٌ سبق كل بدء، ولذلك هو البدء، وكل ما عداه تابع له وخاضع لسلطانه، ولذلك يوصف الرب بأنه الألف A والياء Ω البداية والنهاية. لقد ردنا الابن بتجسُّده إلى بدء كل الكائنات العاقلة - أي البشر والملائكة - أي الآب، وجعل بدايتنا هو الله الآب نفسه، ولذلك وُلِدَ بدون زرع بشر حتى فيه تعود الطبيعة الإنسانية إلى أصلها ومصدر وجودها، أي الآب، وفيه نرتقي إلى الشركة في الثالوث.

معمودية الرب في الأردن

١٤- لقد اعتمد الرب لكي يعطي لنا مسحةً أفضل من مسحة ملوك وأنبياء بني إسرائيل، فقد انسكب عليه الروح القدس، أي على ناسوته. ونحن نقول: "عليه" مؤكِّدين وحدة الأُقنوم وعدم انفصال الطبيعتين؛ لأن ثبات الناسوت هو في اتحاده بابن الله الكلمة الأزلي المساوي للآب حسب الجوهر، والمساوي لنا حسب تدبير التجسُّد.

هكذا جمع الابن المتجسِّد في أُقنومه المساواة الأزلية حسب اللاهوت، والمساواة التدبيرية حسب تجسُّده؛ لكي يكون رأس الخليقة الجديدة جاذباً إياها إلى معرفة الآب ومعطياً لها كل القوى والنِّعَم التي تسمح لها بالشركة الأبدية، وذلك بمجيء الروح

القدس المعزي وحلوله على الابن المتجسِّد مُعلناً لنا أن المسحة ليست قولاً ولا هي كلمة تُقال رغم صدق كل أقوال الله، ولكنها عطية ظاهرة تُعطى من الآب بإعلان إلهي: "هذا هو ابني الحبيب الذي فيه مسرتي" (راجع مت ٣: ١٧) مؤكِّداً لنا أن كل ما سوف يعطيه الابن والروح هو مسرة واحدة للثالوث القدوس الواحد بالجوهر.

وعندما مُسِحَ بعد صعوده من الماء، فقد حدث أمران كلاهما فائق:

أولاً: رغم أن الابن واحد بالجوهر مع الآب والروح القدس، والروح القدس ليس غريباً عنه، بل هو واحدٌ معه في ذات الجوهر، كما أن الناسوت هو الذي كوَّنه الروح القدس في أحشاء البتول والدة الإله، إلاَّ أن الناسوت المتحد بأُقنوم الابن، والابن نفسه "رئيس الحياة" (أع ٣: ١٥) كان محتاجاً لأنْ يُعلِن المسحة لنا، فقد مُسِحَ "لأجلنا"، و"لأجلنا" أُعلنت فيه مسرة الآب بالإعلان السماوي، ومسرة الروح بالحلول عليه في شكل حمامة.

وعندما مُسِحَ صار "المسيح"، وصار لنا نحن – بسبب مسحته – ذلك الاسم "الممسوحين"، والذي صار بعد ذلك في إنطاكية "المسيحيين" (أع ١١: ٢٦).

كان الأنبياء يمسحون الملوك، مثلما مَسح صموئيل داوود (١صم ١٦: ١١ – ١٣)، ولكن الآن الذي يمسحنا ليس نبيٌّ، بل "رئيس الحياة"، وهو لا يمسحنا بأي مسحة، بل بمسحته من فوق من عند الآب مؤهِّلاً إيانا لأنْ نكون شركاء في مسحته. وهي المسحة التي نالت الثبات الأبدي بواسطته؛ لأن الروح صار يسكن فيه، ويحل عليه — كمسيحٍ – بسببنا، مؤكِّداً لنا أننا سننال ذات القوة، وأننا سنعمل معه، ولذلك قال: "الأعمال التي أعملها الآن ستعملونها وستعملون ما هو أعظم منها" (راجع يو ١٤: ١٢)، مؤكداً أن الملء سوف يكمُل بنا بواسطته، أي كمال عمل الله الذي سيقوم به الرسل والشهداء والمُعلمين نائلين شركة في أعمال الرب التي سوف تملأ المسكونة.

ثانياً: لقد فتح الرب بمسحته ينبوع الروح القدس للإنسانية. هو بذاته فتح لنا هذا الينبوع. ونحن لم نأخذ مواهب القوة التي أخذها شمشون؛ لأن القوة الجسدانية ليست هي المطلوبة في التجديد. لقد كانت — هذه القوة – مطلوبة لمقاومة قوة الآلهة الوثنية، أي الشياطين. أمَّا الآن، وقد نقل الرب التجديد إلى قلب الإنسان، صار من

الضروري أن تُنقل قوة الروح إلى الإنسان "الباطن" الجديد المخلوق حسب الله (أف ٤: ٢٤)، لذا أخذنا مواهب روحية لم تكن معروفة للأنبياء مثل طرد الشياطين. و لم تعد موهبة النبوة خاصة وقاصرة على أحداث المستقبل فقط، بل على خفايا وأسرار القلب، وهي أصعب بكثير؛ لأن قلب الإنسان أعمق من أعماق البحار، ومظلم لا يعرفه الإنسان نفسه بدون روح الحكمة وربنا يسوع المسيح الذي يسكن فينا معلناً لنا أسرار قلوبنا.

وحسب غنى الروح أخذنا مواهب الشفاء والتكلم بالألسنة الجديدة (مر ١٦: ٩) ووضع اليد لإقامة خدام الكلمة، ومواهب الكهنوت، وتقديس الخليقة: الماء، والخبز والخمر، والزيت المقدس، الميرون، وتقديس الأيقونات؛ لأننا بسبب معمودية الرب وتجلِّي الرب على جبل طابور، دخلنا تجديد الخليقة التي صارت تتجلَّى بالنور الإلهي.

وقد شرح الأب ديونيسيوس معلمنا الفاضل كل ذلك في كتابه الذي وضع فيه تسليم الآباء. ونكتفي بما ذكره معلمنا الفاضل، **وهو أن الروح القدس ظهر في الإعلانات الإلهية في شكل الخليقة المنظورة: ألسنة النار، الريح العاصف، الحمامة الوديعة معلناً لنا محبة الله للخليقة المنظورة غير العاقلة واشتراكها في التجديد؛ لأنها دُعيت إلى مجد ابن الله بعد أن خضعت للباطل** (رو ٨: ٨)، **ولذلك السبب عينه يقدِّس الروح القدس المياه في المعمودية وغسل الأرجل، والخبز والخمر في الإفخارستيا، وزيت طرد الشياطين والميرون المقدس في المعمودية، ومسحة المرضى؛ لأن كل الخليقة تسبِّح وتبارك وتشترك في خدمة إرادة وإعلانات خالقها الثالوث القدوس.**

١٥- لقد مُسِحنا في الرب، وهذا ما يؤكده القديس بولس الرسول: "الذي يثبِّتنا معكم في المسيح، وقد مسحنا هو الله الذي ختمنا أيضاً وأعطانا عربون الروح في قلوبنا" (٢كور ١: ٢١- ٢٢).

ومتى مُسِحنا في المسيح؟ أليس عندما حَلَّ عليه الروح القدس في الأردن؟ نحن فيه منذ الأزل، حسب قول الرسول "اختارنا فيه قبل خلق العالم" (راجع أف ١: ٤)، ولكن ذلك الاختيار ظهر في الدهور، مُعلَناً في حياة الرب نفسه، لذلك جاء واعتمد

ومُسح لكي يؤسِّس معموديتنا ومسحتنا فيه، وهذا هو السبب في أننا لا نُعيد معمودية المرتدِّين؛ لأنهم اعتمدوا في الرب حسب التدبير، والرب اعتمد مرةً واحدة عَمَّدَ فيها كل الآتين إلى الإيمان فيه لكي ينال بعد معموديته كل واحد نصيبه حسب تدبير الله المُعلن في المسيح.

موت الرب المحيي على الصليب المُكرَّم

١٦– صُلِبَ الرب على الصليب ومات لأجلنا. لم يكن محتاجاً إلى الصليب ولا يقوى عليه الموت؛ لأنه أقام لعازر وغيره من الأموات، وهو جاء لكي يبيد الموت، لكنه طوعياً اختار أن يموت لكي يبيد الموت.

على الصليب تمت ثلاثة أمور خاصة بالتدبير وبالسرائر الكنسية:

أولاً: قَبِلَ الربُ الموتَ بإرادته الإلهية المتجسِّدة؛ لأن له إرادة واحدة من إرادتين. وبقبول الموت مات الناسوت موتاً حقيقياً، موت القدوس البرئ من العيب والنقي الذي بلا خطية.

وبقبوله الموت حراً، واجه الموتُ الحياةَ التي لا تموت، ففقد سلطانه وقوته. مات الناسوت وانفصلت النفس عن الجسد، وهو موت كل البشر، ولكن الجديد هنا هو أن النفس الإنسانية عندما تنفصل عن الجسد فهي تذهب إلى الجحيم، أمَّا نفس الرب المتحدة بلاهوته والتي تحمل الحياة الإنسانية كلها، فقد دخلت الجحيم بقوة اللاهوت، وهناك أسرت الكل وأبادت الجحيم وشتَّتت قوات الظلمة وأخرجت الراقدين على رجاء.

وهكذا، على الصليب أباد الربُ الموتَ وجرَّده من قوته لأنه قبله بإرادته الحرة، وبذلك فَقَدَ سلطانه على البشرية. نحن لا نعني الموت الجسداني (البيولوجي)، وإنما نعني الموت الروحي، وهو جهل الإنسان وعصيانه وتثبيت الحياة وحصرها في كيانه ظناً منه أن هذا هو طريق الخلود، وطلب الخلود بكسر الوصايا؛ لأن الإنسان صار ناموس الخير والشر بدون الله. هكذا انحصر الإنسان في ذاته وخسر الحياة؛ لأن الكيان المخلوق من العدم لا يمنح الإنسان البقاء الأبدي، بل الذي يمنح الحياة الأبدية هو الرب يسوع المسيح.

ثانياً: إن انتصار الرب على الموت على الصليب هو سبب تكريم الصليب واعتباره "ختم" الرب يسوع الذي به نختم أعضاء الجسد بزيت المسحة (الميرون الإلهي المقدس)، وبه نختم القربان والكأس وكل ما هو متصل بخدمة (ليتورجية) السرائر الكنسية.

وعلة ذلك – كما ذكرنا الآن — هو انتصار الرب على الموت على الصليب. ولذلك، إذا عُدنا إلى مذبح ما قبل ذبيحة الابن[١]، أدركنا أن الآب لم يكن هو الكاهن؛ لأن رئاسة الكهنوت احتاجت إلى الطبيعة الإنسانية التي يخدم بها الإنسان خالقه، ولذلك خدم الرب ككاهن ذبيحة نفسه، أي ذبيحته المقدسة.

ولم تكن الخدمة قاصرة على الناسوت وحده؛ لأننا لا نؤمن بانفصال الطبيعتين، بل — كما تسلَّمنا من معلم السرائر الكنسية القديس ديونيسيوس الأريوباغي وغيره من الآباء — أن خدمة الرب يسوع هي خدمة إلهية إنسانية[٢] لا ينفصل فيها اللاهوت عن الناسوت.

---

(١) يقصد مذبح العهد القديم.

(٢) من المصطلحات اللاهوتية الهامة التي تحتاج إلى دراسة موسعة التعبير اليوناني المعروف عند الآباء Θεανδρικος فقد ورد هذا التعبير في الرسالة الرابعة للأريوباغي (النص اليوناني مجلد ٣: عامود ١٠٧٢). وورد أيضاً عند القديس غريغوريوس النيسي في العظة ٣: ٨٠ على إنجيل يوحنا. وتوصف أعمال الرب يسوع بأنها Θεανδρικως أي أن شخص الرب يسوع يعمل أعماله الخاصة به على نحو إلهي — إنساني، ولذلك يوصف الرب يسوع بأنه Θεανδριτης وهذا يهدم كل الأفكار اللاهوتية الحديثة التي شاع بعضها في كتب معاصرة عن مفارقة اللاهوت للناسوت على الصليب أو في الجحيم، أو انفصال الآب عن الابن كما هو شائع لدى بعض شيع البروتستانت؛ لأن الرب قَبِلَ الموت بحريته وباختياره حسب نص يوحنا ١٠: ١٧ — ١٨ وبالتالي فقد قَبلَه بسلطانه كما يقول الرب نفسه: "لِي سلطان أن أضعها، وسلطانٌ أن آخذها أيضاً" (يو ١٠: ١٨) مؤكداً أن هذا بالذات هو محبة الآب له، وإن الآب – الذي يحبه عندما يضع نفسه – لن يكون الديان الذي يحاكم ويحاسب الحمل على خطايا العالم، بل الديان الذي يغفر خطايا العالم كله كما قال يوحنا المعمدان: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم"، أي لا يجعل الخطيةَ عائقاً وحاجزاً بين الله والإنسان.

وطالما أن أعمال الرب هي إلهية — إنسانية، فهو والآب إرادة واحدة، ولذلك فإن إرادة تقديم ذاته يعبِّر عنها الرب بقوله: "لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي" (يو ١٠: ١٧)، وهو ما يجعل الآب شريكاً في القربان أو الذبيحة. هذا يتطلب منا جهداً خاصاً لأن نترك طقوس العهد القديم التي — رغم أهميتها — لا تقدر أن تشرح لنا النور الكامل؛ لأن الظل لا يشرح النور، أي لا تشرح الذبائح موت الرب يسوع على الصليب المكرَّم.

ولم يكن اللاهوت أو الناسوت هو الذي صرخ: "إلهي إلهي لماذا تركتني؟"؛ لأن الرب لا ينقسم إلى أُقنومين (شخصين) أحدهما يخاطب الآخر، وإنما كانت افتتاحية المزمور ٢٢ تؤكد على فم الرب أنه هو الذي سوف ينتصر ويقوم حسبما ورد في نهاية المزمور، وحسبما سجَّل النبي آلام الرب المحيية، ولذلك نطق هذه الكلمات مؤكداً آلام البار الذي – كما قال أشعياء – "لم يوجد في فمه غش"، وأيضاً "إذا ظُلِمَ لم يكن يهدد"، فكل أقوال الأنبياء تمت في صلب الرب، وكان الرب نفسه هو الذي يعلنها مؤكداً إن ما حدث له على الجلجثة سبق ورآه الأنبياء.

أمَّا آلام الأبرار، فهي حسب تدبير الله. فلقد صرخ الرب معلناً براءته مؤكداً لنا أنه لم يُصلب من أجل شرٍ، بل من أجل بشارة الحياة التي بدأ بها كرازته "توبوا لأن ملكوت السموات قد اقترب منكم" (راجع مر ١: ١٥). هكذا جاء مُلك الرب، ليس فقط بتجسُّده، بل بموته المحيي، فنال الرب – بسبب بره – الملك؛ لأنه عاش كإنسانٍ بار معلناً بر اللاهوت بالحياة التي عاشها؛ لأن كل أفعال الله في العهد القديم صارت معلنَةً بشكلٍ أكمل في خدمة الرب وتعليمه وموته وقيامته.

وهكذا، بالفعل الإلهي الإنساني[1] كانت الإرادة الواحدة من الإرادتين هي التي نطقت بهذه الكلمات: "إلهي إلهي"؛ لأنه عندما أخلى ذاته وأخذ صورة العبد، عاش ملء الحياة الإنسانية التي أخضع لها إرادته الإلهية. كما عاش ملء حياته الإلهية التي اختبرتها إرادته الإنسانية، وهذا هو ما جعل له إرادة واحدة من إرادتين. وعندما خضع الرب لإرادته الإنسانية، وخضعت حياته وإرادته الإلهية لحياته الإنسانية، حياة واحدة إلهية إنسانية؛ أعلن لنا الاتحاد الكامل للرب الواحد من طبيعتين، مؤكداً وحدة الأُقنوم، الإله المتجسِّد.

---

(١) أنظر المرجع السابق.

ولكن على الصليب حدث ما هو فائق: فقد قَبِلَ الموت، والمـوت لا يخص اللاهوت؛ لأن اللاهوت لا يموت، ولكن القابل للموت هو الناسوت، ولَمَّا قَبِلَ الناسوتُ الموتَ - بسبب قبوله إرادة الرب الإلهية الإنسانية للموت - مات حقاً واختبر الموت، ولذلك تقول كلمات التقوى الأرثوذكسية: "يا مَن ذاق الموت"، فقد مات الرب حقاً دون أن يموت، مات حسب الناسوت وظل حياً حسب اللاهوت.

هذا هو الانفصال الحقيقي بين ما هو إلهي وما هو إنساني، ولكنه الآن يتم داخل الأُقنوم الواحد، إنه مثل موت عضوٍ في الجسد ويقطع من أجل باقي الأعضاء، وبذلك يصير الألم أعظم. وكأن الذي عاش مجد الأردن وسمع صوت الآب ينطق بكلامٍ بشري: "هذا هو ابني الحبيب"، وتجلَّى على جبل طابور، وجاء بلعَازر من الهاوية — وهو الوحيد الذي سجَّل الإنجيليون اسمه من بين الذين قاموا من الأموات؛ لأن ابن أرملة نايين وغيرهم لم تذكرهم الأناجيل الأربعة (لم تذكر أسمائهم)؛ لأن لعازر عاش في "بيت عنيا"، أي بيت الألم والمعاناة — أقام ابن بيت عنيا مؤكداً نهاية معاناة الموت بالنسبة لنا. ولذلك - حسب ترتيب الكنيسة - يسبق سبت لعازر أحد الشعانين وأحد القيامة، وقد تمت المعجزة في يوم السبت؛ لأنه راحة الإنسانية من عذاب الموت والانتظار في الهاوية.

ثالثاً: بقبول الرب الموت على الصليب، مات دون أن يموت. قَبِلَ المـوت في الناسوت وذاقه بالجسد وأفرز ضده الحياة، فأسس السرائر الكنسية؛ لأن السرائر هي عطية حياة الرب لنا، تُعطى لنا نحن الترابيين، وتعطي حياةً في الموت الطبيعي (الجسداني أو البيولوجي) والموت الروحي، وهو جهل الإنسان ورفض إرادة الرب ووصاياه المحيية.

هذا يقابله الرب فينا كما قابل الموت على الصليب. إنه يأخذ موتَ كل شخصٍ كموته هو على الصليب، ولكن الآن يقابل الرب موتنا بالقوة التي أُعلنت على الصليبِ المكرَّم، ويعطي الحياة في المعمودية، والمسحة في الميرون، ثم طعام الخلود في السر المجيد الفائق، سر الإفخارستيا. وعندما نكسر جسد الرب، نقول أيضاً إننا كسرنا الخبز؛ لأن الكسر هو رتبة توزيع جسد الرب على المؤمنين. والكسر لا يعني

تمزيق وفصل أعضاء الرب أو فصل الناسوت عن اللاهوت، **بل توزيع ميراث الحياة الأبدية للمؤمنين**. هكذا تمت مقابلة الحياة الغالبة بالموت الذي فينا، ولذلك كل مرة يعتمد فيها مؤمن، تكون هذه المعمودية شركة في موت الرب الذي ذاقه على الصليب، وهو موت الحياة القديمة وانتصار الحياة الجديدة الناهضة من أوجاع الموت (أع ٢: ٢٤)[(١)].

أمَّا عن الموت الروحي، فقد تركت هذا الموضوع بالذات؛ لأنني كتبت مع الأب ديونيسيوس مقالة كاملة مودعة عند الأب الراهب أرسانيوس بدير الإخوة.

إعلان الثالوث على الصليب المكرَّم

١٧- عندما جاء الرب إلى آلامه الطوعية، قال - وهو قريبٌ من الجلجثة التي رآها قبل خلق الأزمنة – "يا أبتاه مجِّد اسمك، فجاء صوت الآب: مجَّدتُ وسوف أُمجِّد" (راجع يو ١٢: ٢٨). والذين كانوا حوله قالوا حدث رعدٌ، وآخرون قالوا كلَّمه ملاك، فقد كانت عتامة وظلمة الذين حوله تحول دون فهم الإعلان.

هكذا كان الصوت الإلهي مشيراً بعد ذلك إلى "الظلمة" التي جاءت في الساعة السادسة؛ لأن الرب يملك وحول عرشه "الظلمة"، ولذلك حدثت الزلازل كما حدث في إعلانات الله في العهد القديم، وتفتحت القبور وقام كثير من الراقدين حسب شهادة الإنجيلي متى ودخلوا المدينة المقدسة بعد قيامته؛ لأن الحياة أُعلنت وحجاب الهيكل انشق، وقدس الأقداس ظهر. فقد كان الآب – على الصليب – مع الابن المصلوب يكشف لنا بالرموز ما يحدث على الجلجثة؛ لأن "ملك الرب على خشبة" (مز ٩٥: ١٠ س) تعني أنه يملك الآن – لا سيما بعد انقشاع الظلمة – معلناً نور المحبة الإلهية للآب حسب قول رسول المسيح وشاهده: "لأن الله بيَّن لنا محبته، ولأننا خطاة مات المسيح لأجلنا" (رو ٥: ٨ ترجمة عن القبطية).

---

(١) "الذي أقامه الله ناقضا أوجاع الموت إذ لم يكن ممكنا أن يُمسك منه".

أعلن الآب محبته للابن المصلوب، وسكب ينبوع محبته الأزلية علناً على المعلَّق على الصليب، أي الطبيعة الإنسانية، ولذلك صرخ المخلِّص قائلاً: "يا أبتاه في يديك استودع روحي" (لو ٢٣: ٤٦) وهي عبارة المزمور ٣١ وبقية العبارة "فديتني يا إله الحق" (مز ٣١: ٥).

ويذكِّرنا الرسول بصراع الحياة مع الموت، والقداسة مع الخطية باعترافٍ حسنٍ، عندما يقول: "الذي في أيام جسده إذ قدَّم طلبات وتضرعات بصراخٍ شديد ودموعٍ للقادر أن يخلِّصه من الموت وسُمِعَ له من أجل تقواه، ورغم أنه الابن إلاَّ أنه تعلَّم الطاعة مما تألم به، وإذ كمَّل صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي، مدعواً من الله رئيس كهنةٍ على رتبة ملكي صادق" (عب ٥: ٧ - ٩).

وهكذا لم يكن إعلان محبة الله الآب لنا قاصراً على زلزال الجلجثة، وإنما أيضاً في صلاة الرب في جثيماني. وحسب التدبير، قدَّم الابن – له المجد — جسده ودمه في عُلِّية صهيون بحريته "وسلطانه وحده". ثم بعد ذلك ذهب إلى البستان لكي يصلِّي، فأسس بذلك تدبير القدَّاسات، الصلاة بعد تقديس الخبز والخمر واستدعاءِ الروح القدس الذي أعلنه لنا الإنجيلي يوحنا، ثم بعد ذلك ذهب إلى الجلجثة.

وحسب كلمات الرسول السابقة في عب ٥: ٧ — ٩ فإن الرب يسوع المسيح ابن الله الحي، بعد أن قدَّم جسده ودمه بحريته ومحبته للتلاميذ، سكب نفسه كرئيس كهنة، إذ هيَّأ ذبيحة حياته في البستان لكي تقبل نار الموت الروحية غير المنظورة ويُطفئها، وهنا تمَّ أمرٌ عجيب، فالطبيعة الإنسانية التي لا تقبل الموت ولا ترضى به، بل تقاومه – أي الطبيعة الآدمية الساقطة؛ لأن السقوط كان ولا زال سقوطاً من نعمة عدم الموت، أي نعمة الحياة الأبدية، وهي رغبة الإنسان في أن يكون إلهاً بدون الله، حياً إلى الأبد دون أن يكون له ينبوع حياة فيه – هذه الطبيعة قبلت الموت. وبالرغم من أن اتحادها بلاهوت الابن الكلمة يجعلها لا تقبل الموت، بل هي ضد الموت، قبلت الموت لأجلنا.

هذا هو السبب الذي دعا الرسول لأن يقول عنه إنه قدَّم صلوات وتضرعات للقادر أن يخلصه من الموت، والموت هنا ليس موت الجسد وانفصال الروح عن الجسد

الذي يحدث لنا جميعاً بدون إرادتنا، ولا نقدر أن نقاومه مهما كانت قدرتنا، بل هو الموت الروحي.

ولعلكم تذكرون – أيها الأحباء – حديث الأب والمعلِّم الحكيم ديونيسيوس في الاجتماع الكبير بعد عيد القيامة، أنه قال لنا إن الموت الروحي هو:

أولاً: جهل الإنسان بخالقه.

ثانياً: الظَّن والوهم بأن الحياة التي فينا هي مِنَّا، ولذلك نتصرَّف كما لو كنَّا خالدين بالطبيعة.

ثالثاً: إننا صرنا لأنفسنا، وبدون الله، شريعة الخير والشر، ولذلك فقدنا التمييز بين الخير والشر.

رابعا: إننا حصرنا حياتنا في داخلنا وأغلقنا كل سُبُل الشركة مع الآخرين والكون، وقبل كل هؤلاء، الله نفسه الذي نقترب منه عندما نحتاجه.

خامساً: إننا بسبب الظن والوهم بأننا خالدون بالطبيعة ولا يقوى علينا الموت، أصبحنا نظن أن الخلود هو في بقاء الجسد.

لقد واجه الابن هذه الظنون جميعها، ولذلك قال الإنجيلي إنه ابتدأ بالدهشة والحزن؛ لأنه عاش بيننا شافياً وطبيباً وراعياً ومعلماً، وشفى أمراضنا وأقام الموتى، ولكنه الآن دخل قُدس الأقداس لكي يقدِّم – ككاهنٍ – ذبيحةَ جسده ودمه، و لم يكن قُدس الأقداس هو ذاك الذي شيَّده موسى وسليمان، بل "السماء عينها" التي لا تقبل اللحم والدم؛ لأنهما لا يملكان الحياة السماوية. وهو هنا يريد أن يدخل كآدم؛ لأنه يريد أن يأتي بالطبيعة التي أخذها منَّا، أي من العذراء والدة الإله إلى السماء نفسها، وهي فيه ومتَّحدةً به، ولكنها لا تقوى - رغم اتحادها - على الحياة السماوية، وهي - لذلك – تحتاج إلى أن تنال الانتصار على الموت.

وكما كان رئيس الكهنة يدخل قُدس الأقداس مرةً واحدةً في السنة، احتاج الرب أن يعبر حاجز الموت مرةً واحدةً لكي يكمِّل كل الأشياء بذبيحة نفسه. ولذلك اندهش من قساوة قلب الإنسان. كان قلبه ينبض بمحبة الآب، ولكن الموت يمنع المحبة؛

لأن الموت يحرِّك الطبيعة الإنسانية للدفاع عن نفسها. اندهش من اغتراب وجهل الإنسان بخالقه، فهو يحب الآب، وهو، حسب محبته للآب كإنسان – وهي ذات المحبة الواحدة للأُقنوم الواحد، لأن المحبة لا تنقسم — جاء إلى آلام الموت، حسب كلمات التقوى في صلوات الأسبوع العظيم. **وألم الموت هو أن لا يكون مركز الحياة فينا**، وهو ما عبَّر عنه الرسول بولس في مناسبة خاصة بقوله: "إننا نئن مثقَلين، إذ لسنا نريد أن نخلعها، بل أن نلبس فوقها لكي يُبتلَع المائت من الحياة" (٢كور ٥: ٤)، وهكذا كانت آلام الموت هي الرغبة القوية المتأصِّلة في كل نفسٍ إنسانية أن تلبس الحياة فوق الموت، لكي تبيد الحياةُ الموت، وهو غير ممكن؛ لأن ما هو مائت يجب أن يموت لكي يقوم حياً.

وهكذا أيضاً انسكبت دموع الرب، وبصراخٍ وعرقٍ، حتى أنه سُمِعَ في السماء، وظهر له ملاكٌ من السماء لكي يقويه (لو ٢٢: ٤٣)، ولكنه لم يأخذ معونةً من الملائكة؛ لأن القوات السمائية مثلنا، ليس لها حياةً ذاتيةً، ومركز حياها هو الله نفسه. وعبَرَ الربُ حاجز الموت في البستان، ثم عَبَرَه علانيةً على الصليب، وشتَّت قوات الجحيم، وأباد قوة الموت نهائياً من الجسد بالقيامة، لكن نفسه الإنسانية التي هي شفيعة نفوسنا وباكورة ثمار الحياة، دخلت بئر الخطية المظلم، ليس بئر أفعالنا النجسة، وإنما بئر جهل الإنسان بالله، وهو بئر الموت الروحي الذي أشار إليه الأب الحكيم ديونيسيوس، وهناك أشرقت الحياة من جديد، الحياة التي لم تعُد محصورةٌ في داخلها، متحصِّنةٌ بالوهم في الخلود.

١٨– صار رئيسُ كهنةٍ على رتبة ملكي صادق، أي بتقديم خبز الحياة وكأس الشكر. ولمَّا قدَّم جسده في العُلِّية بفرحٍ، كان التقديم بقوة الحياة، ولذلك السبب عندما قدَّم جسده علانيةً على الجلجثة، كان التقديم شفاعةً في الهالكين؛ لأن قوة الحياة واحدة، ولكنها تعمل – حسب التدبير – بفرح المحبة في الشركة مع التلاميذ الذين أحبَّهم وعرفهم، كما تعمل في ألم الموت عن العالم الغارق في عدم معرفة خالقه والمتحصِّن في حياةٍ لا تملك قدرةً على البقاء، بل هي مثل حبة حنطةٍ زُرِعَت في الموت لا تملك أن تشرب من الماء أو تنبت، وأشار الرب إلى ذلك سرياً بقوله: "الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتُمت فهي تبقى وحدها، ولكن متى ماتت تأتي بثمر كثير" (يو ١٢: ٢٤).

وجاء الرب يسوع وزرع جسده في الأرض، أي فينا نحن، ومات لأجلنا، ولذلك لم تعُد حبة الحنطة وحدها؛ لأنه بتقديم جسده يجمع الكل معه كما جمعه، أي الكل فيه؛ لأن ما فيه، أي نحن يجب أن يكون معه، أي أن يكون له شركة. لقد تألم كرئيس كهنةٍ؛ لأنه اجتاز حاجز الموت وعَبَرَه، وصار كاملاً حسب تعبير الرسول: "كمَّل ⲉⲧⲁϥ ϫⲱⲕ ⲉⲃⲟⲗ". لقد "كمَّل" الرب لأنه قَبِلَ الموت وغلبه وداسه تحت قدميه وصار قادراً على أن يعطي الحياة التي فيه، الحياة الغالبة الموت لكل الذين يقبلونه، أي يطيعونه؛ لأن قبول الرب هو طاعته.

١٩- صار الربُ يسوع هو الوسيط والشفيع؛ لأنه مساوٍ للآب في الجوهر ومولود من الآب قبل كل الدهور، فهو وحده القادر على أن يكون شفيعاً لدى الآب، والسبب واضحٌ لمن استنار، فقد صار شفيعاً لأنه يحملنا في داخله، وصار وسيطاً لأنه بسبب التجسد لم يعُد بين الله والبشر فجوة، بل وحدة تامة في الرب الواحد.

والرب لا يتوسل ولا يترجَّى، بل يقدِّم توسلاتنا للآب، أي تلك التي يضعها الروح القدس في قلوبنا، وعندما يقدِّمها، فهو يقدِّمها كاحتياجات جسده، أي أعضاء جسده؛ لأننا نحن "خاصته" (راجع يو ١٠: ١٤)، وخاصته كأعضاء جسده، لذا فإن صلواتنا وتوسلاتنا هي صلوات وتوسلات الابن رئيس الكنيسة رأس الجسد، رئيس الكهنة الذي قدَّمنا لله الآب.

لقد صارت صلواته صلواتنا، وصلواتنا صلواته، بمعنى أنها صلوات أعضاء جسده، وصرخات كل عضو فيه هي صرخته، ولذلك قال لشاول – الذي هو بولس: "لماذا تضطهدني؟" (أع ٩: ٤). ولأن الرسول قال عن الرب يسوع ابن الله: "سُرَّ أن يحل فيه كل ملء اللاهوت جسدياً" (كولوسي ٢: ٩)، تحققنا أنه لا يوجد في الرب يسوع خارج وداخل، بل الكل داخله لأنه هو "الملء"، وكل حركة وفعل وإعلان هو من الداخل، من أُقنومه الإلهي الذي يملأ كل الخليقة، وإذا أُعلن بشكل منظور، أو بعملٍ قام به الابن، فهو ليس إعلاناً من خارج جوهر الأُقنوم في الثالوث. هكذا كل ما يحدث على مستوى ما هو منظور، هو معلنٌ في اللاهوت حسب استطاعته "أن يُخضع كل شيء تحت قدميه" (١كور ١٥: ٢٥ - ٢٧)، أي تحت سلطانه.

الليتورجية

حسب ملء اللاهوت[١]

٢٠- كيف يجب أن نفهم شفاعة الرب يسوع حسب استقامة الإيمان (أرثوذكسية الإيمان)؟

أولاً: لا يجب أن تمنعنا سموم هرطقة أريوس من إدراك تواضع الرب يسوع وإخلاء ذاته حسب استقامة الإيمان.

ثانياً: ألاَّ تمنعنا دعوة الموحِّدين عن قبول تواضع محبة الله الآب المعلَنة في الابن بالروح القدس.

ثالثاً: ألاَّ نسمح لثمرة الخطية، أي الموت أن يحوِّل إيماننا عن إعلان محبة الله للخطاة؛ لأن الخطية تعيدنا إلى كياننا المحدود، حيث نلمس الموت ونهاية كل ما نعرف أو نحس أو نرى، وبذلك تغلق أمامنا رؤية الإيمان لما هو غير منظور (عب ١١: ١ - ٣).

٢١- يخدمنا الرب يسوع لأنه قوي، ولأنه ضابط الكل، وقادر على كل شيء. هو خالقنا وفادينا، ولذلك لا يهمل الخليقة ويتركها بدون رعاية. نحن نأخذ منه "موهبة النطق"، ومنه نأخذ الوجود والحياة، ولذلك هو يخدمنا لأنه إلهنا الذي منه وبه وله كل الأشياء حسب قدرته الفائقة التي لا تُحَدُّ ولا تُوصَف.

٢٢- وبسبب تجسُّد الابن من الروح القدس ومن والدة الإله، صار الروح القدس شريكاً في خدمة الابن. صار هو، أي الروح القدس، النعمة والقوة التي يمنحها الابن له المجد لنا؛ لأنه — أي الروح القدس - قادر على كل الأشياء، وضابط الكل مثل الابن، وحي ومحيي، ولأن الابن له المجد بتجسُّده من الروح القدس أعطانا أن نحيا معه بالروح القدس في شركة دائمة أبدية.

---

(١) عنوان أصلي.

وكما قلنا سابقاً إنه لا يوجد داخل وخارج في اللاهوت، بل كل ما هو منظور هو في اللاهوت، كل شيء "فيه خُلِقَ" كما يقول الرسول[١]، وهو لذلك يؤسس شركته فينا بسبب تجسُّده من داخل قوته ومن داخل حياته. **وهنا يجب أن نفهم أنه لا توجد مسافة تفصل الله عن الخليقة، بل إن حدود المخلوق هي جوهر أو طبيعة كل مخلوق المختلفة تماماً عن جوهر وطبيعة الخالق، والاختلاف هنا هو اختلافٌ لا يمكن القضاء عليه من جانبنا أو تعدِّيه، لكن بسبب تنازل الله إلينا وسُكناه فينا، يحفظ حدود طبعنا الإنساني حسب محبته، ويجعل قدرته الفائقة تحركنا وتقودنا برفقٍ نحو الشركة.**

هذا هو أساس الليتورجية حسب ملء اللاهوت؛ لأن غنى الله يُعطى للطبع المخلوق حسب صلاح الله المُعلن في يسوع المسيح، أي في تجسُّده. وحسب غنى وصلاح الله يعلن الابن، ويعطي من كيانه الإنساني الذي كوَّنه الروح القدس؛ لكي ننال - حسب غنى صلاحه - شركةً في الروح وفي الآب حسب علاقة الابن بالآب والروح القدس، شركة من داخل جوهر اللاهوت، تُعطى حسب صلاح الله وحسب حدود طبعنا المخلوق.

٢٣– وهكذا قلنا إننا خاصته، وإنه بسبب تجسُّده صارت صلواتنا صلاته، وصلاته صلواتنا؛ لأنه صار الابن البِكر "بين إخوةٍ كثيرين" (رو ٨: ٢٩). وشفاعة الرب يسوع ليست فقط في تقديم صلواتنا إلى الآب، بل في انتظاره الفائق أن يعطي لنا قامته وشكل جسد مجده[٢].

ولأن هذا محفوظٌ في الرب يسوع، تصبح صلواتنا وتوسلاتنا — لا سيما تلك التي يغرسها الروح القدس — متجهةً نحو امتلاكنا لعطية حياة الابن، ربنا يسوع المسيح الذي يشتاق أن يعطي أكثر مما نظن أو نتصوَّر.

---

(١) "فإنه فيه خلق الكل ما في السموات وما على الأرض ما يرى وما لا يرى سواء كان عروشا أم سيادات أم رياسات أم سلاطين.الكل به وله قد خلق" (كول ١: ١٦).

(٢) "فإن سيرتنا نحن هي في السموات التي منها أيضاً ننتظر مخلّصا هو الرب يسوع المسيح الذي سيغيّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل استطاعته أن يخضع لنفسه كل شيء" (فليبي ٣: ٢٠ – ٢١).

٢٤- يمنح الحلول المتبادل لأقانيم الثالوث، **حركة محبة داخلية مصدرها الآب، دائرها الابن، أي إعلانها، قوها الروح القدس، مركزها الناسوت، أي الطبيعة الإنسانية التي أخذها الابن من والدة الإله، أي منَّا.**

تتحرك المحبة في داخل جوهر الثالوث مثل نبضة القلب من الآب، ترسل فيضان المحبة والشوق للابن المتجسِّد والممجَّد، لكي يعلنها الابن ويعطيها بالروح القدس للإنسانية.

هذا هو أساس الليتورجية حسب ملء اللاهوت. التي بها (أي الليتورجية) نمتلئ - كبشرٍ - من الله؛ لأننا عندما نعتمد باسم الثالوث، فحسب المنظور نغطس في مياه المعمودية، وحسب حركة المحبة الإلهية، يخلع الابن منَّا — بقوة موته — الطبيعة القديمة، ويحررنا من الدينونة، ويغسلنا من دنس الخطية، وينقلنا إلى القيامة معطياً لنا بذرة القيامة في النفس لكي تنمو كاملةً في يوم الانعتاق من جسد الموت. ويتم كل هذا بقوة الروح القدس المعزِّي الذي ينقل من الابن ويعطي لنا أولاً من ميلاده من البتول ميلاداً لنا، أي بدايةً. ومن مسحته، مسحة الميرون الإلهي. ومن موته على الصليب المكرَّم قوة حياة وغلبة الخطية. ومن القيامة رؤية وإعلان السماويات ومجد الحياة الآتية لكي نتقوى على شدائد الحياة الأرضية.

هكذا، من الحياة الإلهية نأخذ من "ملء قامة المسيح"، ذلك الملء الذي أخذه الابن من الآب ومن الروح القدس لأجلنا، وحفظه في أُقنومه الإلهي لكي يكون ميراثاً لنا.

٢٥- في الإفخارستيا يتجلَّى الابن — رأس الكنيسة — بروح الآب القدوس. يتحرَّك نحونا عندما نطلبه، لا يترل كما تترل الأجسام، بل يتحرك مثل قلبٍ يسكب الحياة. نناديه، لا لكي يأتي، بل لكي نأتي نحن إليه. والنداء هو الكلمات المقدسة التي يضعها الروح القدس على لساننا(١)، وهي كلمات أُعطيت لآخرين قبلنا، ولكنها صارت كلماتنا؛ لأنها آتية من الالتصاق بالمسيح في سر المعمودية العظيم، ومن سر مسحة الميرون الإلهي، ومن كلمات الوحي. هذه معاً تخلِق، ليس من العدم، بل من

(١) راجع قداس مار مرقس حيث يطلب الأب الكاهن من الروح القدس أن يضع على لسانه أو في فمه "الكلمات المطهِّرة".

صورة المسيح، من صورة التصاقه بنا، من محبته النارية للبشر، من قدرته على تجديد القديم وعتق الإنسان من الخطية والموت.

"يا الله العظيم الأبدي" تسبحة آتية من سر المعمودية.

"الذي جبل الإنسان على غير فساد" آتية من بشارة الإنجيل.

"والموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس هدمته" آتية من الالتصاق بالرب بالروح القدس.

"بمسرتك يا الله أملأ قلوبنا من سلامك" آتية من الروح المعزِّي الذي أعطيته بعد قيامتك يا يسوع يا ذو الاسم المخلِّص الذي بكثرة محبته للبشر قَبِلَ الموت لأجلنا لكي نقبل نحن الحياة.

٢٦- لا أريد أن أكتب ما يجول في قلبي؛ لأن الروح القدس يعطي كل واحد حسب استطاعته وحسب قدرة ورؤية مَن يطلب. لا أريد أن أُقدِّم، ولو قبساً من نور الروح القدس الذي يملأ قلبي عندما أخدم السر الرهيب؛ لأن هذا يجب أن يكون سيرة كل واحد منَّا مع الروح، ليس عن بُخلٍ، ولا خوفاً من الكبرياء، ولكن لأن أسرار الروح تُعطى لكل واحدٍ منَّا حسب محبته، وهي ليست كلمات تُكتب، بل هي حركة المحبة والحياة التي تأتي من الروح القدس.

من الصلاة نتعلم أسرار الثالوث، وأقول لكم إن دعوة الموحِّدين سوف تجد الأذن المستعدة لأن تسمع كلاماً يقبله العقل ويسود عليه العقل، وهناك يموت الإيمان؛ لأن الله الخاضع للعقل هو صنمٌ جديدٌ، ولكن الله الذي يدعو العقل إلى رؤيةٍ أعظم من الكلمات والروح هو الإله الحي الحقيقي.

وعندما تتحول دعوتنا إلى كتابٍ نقرأه، نصبح عبيداً للحروف.

وعندما تصبح الكلمات هي العلامات الوحيدة الدالة على الله، يموت الله فينا عندما تموت الكلمات ومعانيها.

وعندما يصبح "السطر" هو ما يجب أن نحفظه، و"النص" هو ما يجب أن نتفوه به، ننكر الروح القدس، روح الأنبياء الذين لم يُدعونا إلى قبول كلمات ونصوص وكتب، بل إلى رؤية وإلى إعلان تؤكده الصلاة والشركة وحركة المحبة الإلهية في الثالوث القدوس.

٢٧– انظروا أيها الإخوة، إن الحديث عن الله هو إمَّا عنه مباشرةً، أي عن محبته وصلاحه، وإمَّا عن أعماله التي عملها مع غيرنا من البشر الذين سبقونا في الإيمان مثل البطاركة. والنوع الثاني يعطي لنا معرفة غير مباشرة بالله. أمَّا النوع الأول فهو يعطي لنا معرفة مباشرة بالله؛ لأن جوهره هو الشركة في الحياة الإلهية. لذلك السبب، إذا عُدنا إلى الليتورجية والحلول المتبادَل بين أقانيم الثالوث، **نجد أن الآبَ حالٌ في الابن منذ الأزل، ولكن الابن حلَّ في الآب بنوعٍ خاص بعد تجسُّده، فقد جاء بالمحدود والترابي، أي الإنسان وجعله "واحداً مع لاهوته"، وجاء به إلى ذات الشركة الأزلية.**

انظروا أيها الأحبَّاء مقدار عظمة محبة الله لنا؛ لأننا الآن عندما نتوجَّه بالصلاة إلى الآب في الابن بالروح القدس، فإن صلواتنا يقدِّمها رأس الجسد، رئيس الكهنة ربنا يسوع المسيح. وعندما نصلِّي، يتجه الابن حاملاً إيانا فيه حالاً في الآب، وتصبح صلواتنا كما قال الرسول بولس "نَعَم"؛ لأنه في يسوع نجد كل "نَعَم". وأيضاً عندما يحملنا الابن في أُقنومه، فإنه يحملنا فيه في شركته مع الآب والروح القدس.

٢٨– لذلك السبب، في صلاة القسمة، نردد كلمات الإيمان، أي نقسِّم الجسد مُخبرين بحياة الرب وموته المحيي وعمله في الكنيسة وفي القديسين؛ لأننا في كل عيد من أعياد الرب نتناول جسده ودمه؛ لأن التناول يعني الاتحاد بما نؤمن، والإيمان بما نتَّحد به. وصلاة القسمة على الأخَّص، تؤكِّد لنا أننا نؤمن بأن الكلمة تُعلِنُ لنا السر، وأن السر يشرح معنى الكلمة، وكلاهما يقودان معاً – إلى المسيح — كل الذين يؤمنون إيماناً ثابتاً يحرِّكه الروح القدس ويقوده نحو معاينة الرب.

الخاتمة

عندما يصل الأب صفنيا عندكم بهذه الأوراق، أرجو أن تُقرأ في المجمع، وأن أسمع أخباركم وتقدُّمكم في الإيمان.

أعلنوا محبة المسيح للخارجين عنا، لا سيما الذين كانت لهم شركة معنـــا. لا شيء يطفئ نار العدو الشيطان سوى مطر المحبة، ولا شيء يعيد إلينا الـــذين تركونـــا سوى الوداعة التي يحل فيها روح يسوع المسيح المخلِّص، ويعطي لنا أن نعلنه بالأعمال والأقوال.

أخيراً صلّوا لأجلنا لكي نعبر بحر العالم الشديد، وأن يعطي لنا الرب معونـــةً عندما نواجه الموت الجسداني الذي نعانيه في حياتنا النُســـكية بالصـــوم والاعتـــزال والصمت والالتصاق بالرب يسوع المسيح.

صفرونيوس يرسل لكم السلام
في ابن الآب رأس الكنيسة
ومخلِّص كل الذين يطلبونه
نسخ كتاب الأب صفرونيوس الراهب الحقير – في رهبان دير والدة الإله – تيموثاؤس، وراجعه الأب صفرونيوس.

....

(سطر غائب في نهاية الصفحة)